الحديث السادس والثلاثون

عن أبى موسى : عبد الله بن قيس ـ الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ قال : «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، والتوبة ٩/ ٨٨ رقم ٣١/ ٢٧٥٩، والنسائى فى : السنن : كتاب التفسير، وأحمد فى : المسند ص ١٤٣١، رقم ١٩٧٥٨، ص ١٤٣٧، رقم ١٩٨٤٨ .

معناه الإجمالى :

الخطأ لازم الإنسان تارةً لضغط الميول الطينية فيه، وتارةً لإغراء عدوِّه الأول إبليس وجنوده، وتارةً لإحاطة أقرانه به من بنى آدم : أهل السوء، والمنكر، وتارةً لبريق الدنيا وزخرفها وزينتها، أو لشدائدها ومحنها، وتارةً لطول الطريق، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء] .

ولو مضى الإنسان فى خطئه فإنه تُظلم نفسه، وينقطع عنه عون ربِّه، فيبقى عنصر فساد وإفساد فى الأرض، وقد تستيقظ نفسه من داخلها، فتقلع عن الخطأ، ويكون جاهلاً بطريق الخلاص من خطأ الماضى فيصيبه اليأس والقنوط، وربما حمله ذلك على قتل نفسه، ومفارقة الحياة الدنيا قبل أن يأذن الله عز وجل بانتهاء دوره فى هذه الحياة، لهذا كله نَبَّهَ ربُّ العزة إلى طريق إيقاف الخطأ، وتكفير ما مضى منه بفتح باب: التوبة والإنابة، والرجوع إليه ـ سبحانه ـ فى أىِّ وقتٍ، وعلى أى حال .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن: دعوة النبى ﷺ المخطئين أن يدركوا خطورة الذنوب بصورة تولد فيهم الندم والإقلاع عن هذه الذنوب فوراً ، مع رد المظالم إلى أصحابها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ومع العزم الصادق ألا يعودوا، وإن

قُطِّعوا وحُرِّقوا بالنار، ثم المحافظة على حدود الله، والإكثار من الطاعات ليكفِّر الله عنهم ما مضى، ويصلح ما بقى .

وكانت سبيل هذه الدعوة التلميح لا التصريح، والإشارة لا العبارة، رفعًا لمعنويات المُخاطب، وإشعاره أنه ما يزال سليم الفطرة، نقى السريرة، راشد العقل، بحيث يغنيه هذا التلميح عن التصريح، وتكفيه الإشارة عن العبارة، وذلك بالإخبار عن الرب الغنى غنى مطلقًا أنه مع غناه المطلق يتودد إلى عباده، ويتحبب إليهم، فيبسط يده دائمًا، علامة على قبوله توبة العاصين، وفرحه برجوعهم إليه، وتجاوزه عنهم، ويجدد هذا البسط ليلاً ونهارًا، إيذانًا بأن من تكرر منه الخطأ لا يحملنَّه هذا التكرار على خجل، والمضىِّ فى طريق الإخطاء إلى غير رجعة، بل عليه الرجوع إلى ربه، وفى كل مرةٍ سيجده مُقبلاً عليه، متوددًا إليه، باسطًا يديه له بالقبول، والستر، والتوفيق، والسداد .

ولكى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فسنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : معنى بسط الله يده، مع سرّ تكرار ذلك ليلاً ونهارًا .

الجانب الثانى : ماهية التوبة، وشروط صحتها، وأمارات قبولها .

الجانب الثالث : آثار الذنوب على الفرد والجماعة، وسبيل التكفير لها .

الجانب الرابع : منزلة التوبة فى الإسلام وأهميتها، ووجه الحاجة إليها مع الأدلة على ذلك .

الجانب الخامس : سبيل التحلى بالتوبة والإنابة إلى الله .

وذلك على النحو التالى :

الجانب الأول : معنى بسط الله يده مع سر تكرار ذلك ليلاً ونهارًا :

بسط اليد لغة يعنى : نشرها، ومدها [١] ، ونسبة بسط اليد إلى الله : حقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله، وثمرة ذلك : فرح الرب سبحانه وتعالى بتوبة العاصى، ورضاه عن عمله، وقبول توبته، وقيل : بسط الله يده : مجاز لا حقيقة، قال المازرى : « المراد به قبول التوبة، وإنما ورد لفظ : بسط اليد؛ لأن العرب إذا رضى

---

(١) انظر : القاموس المحيط ٢/ ٥١٧، ٥١٨ مادة : « بسط » .

أحدهم الشيء بسط يده لقبوله، وإذا كرهه قبضها عنه فَخُوطِبوا بأمر حسِّي يفهمونه، وهو مجاز، فإن اليد الجارحة مستحيلة فى حق الله تعالى » (١) .

وقال القاضى عياض : « قوله : بيده القبض والبسط ، ويبسط يده لمسيء النهار : البسط هنا عبارة عن سعة رحمته ورزقه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ...** ﴾ [الشورى : ٢٧] » (٢) .

والسرُّ فى تكرار هذا البسط ليلاً ونهارًا : تشجيع العاصين على التوبة وإن تكررت منهم المعصية، إذ كلما عصى العبد وتاب، بسط الله له يده فرحًا به، مع رضاه عنه، وقبول توبته ليلاً كان ذلك أو نهارًا، ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبى ﷺ : «أن عبدًا أذنب ذنبًا فقال : ربِّ أذنبتُ ذنبًا، فاغفر لى، قال الله تعالى : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، غفرتُ لعبدى، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فذكر مثل الأول مرتين أخريين » (٣) .

وفى رواية : أنه قال فى الثالثة : « قد غفرتُ لعبدى، فليعمل ما شاء » (٤) .

الجانب الثانى : ماهية التوبة، وشروط صحتها، وأمارات قبولها :

التوبة لغة : الرجوع مطلقًا، أعم من أن يكون من قبيح إلى جميع، أو من حظر إلى إباحة، أو من الأثقل إلى الأخف، قال تعالى: ﴿ **فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ...** ﴾ [البقرة : ٥٤]، أى: ارجعوا عن معصيته إلى طاعته، وقال تعالى: ﴿ **عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ...** ﴾ [البقرة : ١٨٧]، أى: أباح ما حظر عليكم، وقال تعالى: ﴿ **عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ...** ﴾ [المزمل : ٢٠] ، أى:

---

(١) انظر : المعلم ٨/ ٢٦١ بتصرف .

(٢) انظر : مشارق الأنوار ١/ ١٣٣ مادة : « بسط » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التوحيد : باب: : قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ رقم ٧٥٠٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب : قبول التوبة من الذنوب وإن تكرّرت الذنوب والتوبة، رقم ٢٧٥٨/٢٩، وأحمد فى: المسند ٢/ ٤٩٢ وفيه: «اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك»، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه .

(٤) أخرج هذه الرواية الإمام مسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب : قبول التوبة رقم ٢٧٥٨/٣٠ من حديث أبى هريرة .

خفَّفَ عنكم [١] .

التوبة شرعًا : جاءت عن العلماء عدة تعريفات شرعية للتوبة، منها :

١ ـ تعريف الراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)، حيث قال : « والتوبة فى الشرع : ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتداركه من الأعمال بالإعادة » [٢] .

٢ ـ تعريف الجرجانى، حيث قال : « التوبة هى الرجوع إلى الله بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب » [٣] .

٣ ـ تعريف ابن القيم (ت ٧٥١هـ)، حيث قال : « إن حقيقة التوبة : الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهى رجوع من مكروه إلى محبوب، أو هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل فى مسمَّاها: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات كأنها اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان » [٤] .

ولا تعارض بين هذه التعريفات، إذ بعضهم عرّف التوبة بذكر شروط صحتها كلا وهو الراغب الأصفهانى، أو بعضًا وهو الجرجانى، وبعضهم عرّفها بذكر حقيقتها، ومحتواها وهو ابن القيم .

وشروط صحة التوبة هى :

١ ـ وقوعها فى وقت القبول: يعنى: قبل أن يقع الروح فى الحلقوم،وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، لقولهﷺ فى حديث الباب : « حتى تطلع الشمس من مغربها »، ولقوله أيضًا : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » [٥] ،

---

[١] انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/٣٥٧، والصحاح للجوهرى ١/٩٢، ولسان العرب لابن منظور ١/٤٥٤، وعمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبى ١/٣١١، والقاموس المحيط للفيروزآبادى ١/١٦١، وبصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ٢/٣٠٤، مادة : «توب» بتصرف كثير .

[٢] انظر : المفردات فى غريب القرآن، ص ٧٦، مادة : « توب » .

[٣] انظر : التعريفات ، ص ٧٠ .

[٤] انظر : تهذيب مدارج السالكين، ١/٢٧٨، ٢٧٩ .

[٥] الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء، والتوبة، والاستغفار : باب: استحباب: الاستغفار، والإكثار منه ٩/٢٩ رقم ٤٣/٣٠٧٠، وأحمد فى : المسند ٢/٤٩٥ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا به .

ولقوله كذلك : « إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [١] .

٢ ـ الإقلاع عن الذنب ظاهرًا وباطنًا : إقلاعًا مقرونًا ببغضه، وبغض كل ما يُعين عليه، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... ﴾ [النساء : ١٧]، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾ [النحل]، وقوله سبحانه: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾

[الفرقان : ٧٠]

وقوله ﷺ : « إن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب، تاب الله عليه » [٢] .

٣ ـ الندم الشديد والتحسر : كيف كانت الجرأة على الله ؟ وكيف كان الانتفاع بالنعمة مع عصيانه سبحانه بها ؟ وكيف كان الإمهال من الله، وعدم معالجة العقوبة ؟ بل استمرار الفيض بهذه النعمة صباح مساء ؟ لقوله ﷺ : « الندم توبة » [٣] .

وقوله ﷺ : « يا عائشة إن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفرى الله، فإن التوبة من الذنب : الندم، والاستغفار » [٤] .

---

[١] الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الدعوات : باب : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، ص ٨٠٦ رقم ٣٥٣٧، وأحمد فى : المسند ٢/ ١٣٢ كلاهما من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعًا به، وعقّب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن غريب » .

[٢] الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى : باب: حديث الإفك، ص ٧٠٣ رقم ٤١٤١، وكتاب التفسير : باب: قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور]، ص ٨٣١، رقم ٤٧٥٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب: فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٩/ ١١٥، ١٢١ رقم ٥٦/ ٢٧٧٠، وأحمد فى : المسند ٦/ ١٩٦ كلهم من حديث عائشة مرفوعًا به .

[٣] الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ١/ ٣٧٦ (٦/ ٣٧ رقم ٣٥٦٨) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا به، وعقّب عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون بقوله : « صحيح، وهذا إسناد حسن »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب: ذكر التوبة ٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٢ من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا به، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/ ٢٤٧، ٢٤٨ بقوله : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

[٤] الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٦/ ٢٦٤ (٤٣/ ٣١٤ رقم ٢٦٢٧٩) من حديث عائشة مرفوعًا به، وعقب عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون بقوله : (حديث صحيح دون قوله فى حديث الإفك : «فإن التوبة من الذنب : الندم والاستغفار ») .

٤ ـ رد المظالم إلى أصحابها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً : فإن كانت فرائض واجبة القضاء قضيت، وإن كانت حقوقًا للعباد مالية رُدَّت، أو غير مالية استُحل أصحابها فى الجملة، أو مكنوا من القصاص .

لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ... ﴾ [النساء : ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) ﴾ [المائدة] .

ولقوله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه، أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحُمِلَ عليه » (١) .

٥ ـ العزم الصادق على عدم الرجوع إلى الذنب : ولو كان تقطيع الأوصال أو التحريق بالنار .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ ﴾ [التحريم: ٨] .

قال عمر : « التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود فيه، أو لا يريد أن يعود فيه » (٢) ، وقال ابن مسعود : « توبة نصوحًا : يتوب ثم لا يعود » (٣) ، وقال مجاهد : « قوله : ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ قال : يستغفرون، ثم لا يعودون » (٤) .

وأمارات قبول التوبة كثيرة نذكر منها :

١ ـ **الشعور بالحسرة والندامة حين تُذكر المعصية**، وزمنها، ومكانها، وأهلها، مع مفارقة كل ما يذكِّر بهذه المعصية .

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه، فقال : إنه قتل تسعةٌ وتسعين نفسًا، فهل له من توبة ؟ فقال : لا، فقتله، فكمَّل به مائة، ثم سأل

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته ص ٣٩٥ رقم ٢٤٤٩، وأحمد فى : المسند ٢/٥٠٦ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا به .

(٢، ٣، ٤) انظر : جامع البيان للطبرى : سورة التحريم ، آية رقم : ٧ .

عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال : إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال : نعم، ومَن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا، وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرضُ سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب : فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال : قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[1] .

٢ ـ **الاستمرار فى البعد عن المعاصى والسيئات** : والمواظبة على أعمال البر والطاعات، لاسيما إصلاح ما وقع من فساد زمن المعصية، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)** ﴾ [طه]، وقال تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)** ﴾ [مريم] ، وقال تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ...** ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)** ﴾ [طه] ، وقال تعالى : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)** ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)**﴾ [آل عمران]، وقال تعالى : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)** ﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿**أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)** ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)** ﴾ [القصص].

٣ ـ **عدم الخجل من التوبة عند العودة إلى الذنب** : وإن تكرر ذلك مرات ومرات، ما دامت هذه التوبة قد استوفت شروطها فى كل مرة .

وتقدم حديث أبى هريرة مرفوعًا : « إن عبدًا أذنب ذنبًا، فقال : رب أذنبتُ ذنبًا فاغفر لى . . . الحديث »[2] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب أحاديث الأنبياء : باب : منه ، ص ٥٨٥ من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١٢٩ .

الجانب الثالث : آثار الذنوب على الفرد والجماعة، وسبيل التكفير لها :

للذنوب آثار ضارة، وعواقب مهلكة على الفرد والجماعة، منها :

أ ـ على الفرد :

١ ـ الحرمان من الأمن بصورة يكون معها القلق والاضطراب النفسى والتشتت الذهنى، ذلك أن المعصية تسوِّد القلب حتى يصير هذا السَّواد حجابًا، ثم يقفل القلب، ويختم عليه، وتكون الثمرة هى : الخوف المؤدِّى إلى القلق، والاضطراب النفسى، والتشتت الذهنى .

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

كما أن هذا هو مفهوم قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الانعام] .

وهو مفهوم قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد : ٢٨] .

٢ ـ الابتلاء بعلل وأمراض بدنية ما سمع الناس بمثلها من قبل كالزُّهَرى، والسيلان، والإيدز، والجمرة الخبيثة، ونحوها، قال رسول الله ﷺ : « يا معشر المهاجرين : خمس إذا ابتُليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . . . »[(١)] .

٣ ـ نقص الأقوات والأرزاق مع غلاء الأسعار، فإن زادت الأقوات والأرزاق ونزلت الأسعار كان نزع البركة، مع ظلم السلاطين وجورهم، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ

---

(١) الحديث اخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب: العقوبات ٤/ ٣٦٧، ٣٦٨ رقم ٤٠١٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا، وعقَّب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/ ١٨٥، ١٨٦ بقوله: « هذا حديث صحيح الإسناد، هذا حديث صحيح العمل به » .

أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف] .

وقال الرسول ﷺ : « . . . ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخِذوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم . . . » (١) .

وهو المفهوم من قوله ﷺ : « مَن سرَّه أن يُبسط له فى رزقه، ويُنسأ له فى أثره، فَلْيَصِل رحمه » (٢) .

٤ ـ نزع البركة من الأعمار، وربما قصر الأعمار حقيقة تبعًا للقدر المعلَّق، وحديث «مَن سرَّه أن يُبسط له فى رزقه، ويُنسأ له فى أثره . . . الحديث » (٣) ، المذكور آنفًا خير شاهد على ذلك .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله : [إن المعاصى تقصر العمر، وتمحق بركت ولابد، فإن البرَّ كما يزيد فى العمر فالفجور يقصر العمر، وقد اختلف الناس فى هذا الموضع : فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو ذهاب بركة عمره، ومحقها عليه، وهذا حق، وهذا بعض تأثير المعاصى .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسبابًا كثيرة تكثره، وتزيده، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده .

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق، والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عزَّ وجل فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثر المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب، ولهذا جعل الله الكافر ميتًا غير حى، كما قال الله تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ . . . ﴾ [النحل : ٢١]، فالحياة فى الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر، والتقوى، والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى فى حقيقة عمره، ولا عمر له سواها .

---

(١) نفس التخريج السابق .

(٢، ٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوت : باب: من أحب البسط فى الرزق، ص ٣٣٢ رقم ٢٠٦٧ من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا، وكتاب الأدب : باب: من بسط له فى الرزق لصلة الرحم، ص ١٠٤٨ رقم ٥٩٨٥ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، ورقم ٥٩٨٦ من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا .

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول : ﴿ **يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر] ، فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية، والأخروية أولاً، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسَّرت عليه أسباب: الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقى من عمره، وسرُّ المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعيم بحبه وذكره، وإيثاره مرضاته] [١] .

٥ ـ التعريض للغضب الإلهى : ذلك أن الله لا يرضى من عبده المعصية وقد نهاه عنها، قال تعالى : ﴿ **وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ... ﴾ [الزمر : ٧] .

وإذا نزل غضب الله بعبد فلا تسأل عنه أبدًا، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ** ﴿٨١﴾ ﴾ [طه] .

ب ـ على الجماعة :

١ ـ الفرقة والقطيعة بين المسلمين من لدن البيت الواحد إلى الدولة الواحدة بل الدول جميعًا، وربما يتسع الأمر إلى حدِّ الحروب الأهلية، قال تعالى : ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد] .

يقول أبو حيان : « المعنى : إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى فى القتال أن تفسدوا فى الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم، وتقطعوا أرحامكم، لأن من أرحامكم كثيرًا من المسلمين، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من الرحم » [٢] .

وقال النبى ﷺ: « . . . وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » [٣] .

٢ ـ تسليط العصاة بعضهم على بعض لسلب بعض ما فى أيديهم، وإذاقتهم سوء العذاب، قال رسول الله ﷺ: « . . . ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما فى أيديهم . . . » [٤] .

---

(١) انظر : الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى .
(٢) انظر : روح المعانى ، للألوسى ٢٦/٦٩، المجلد التاسع .
(٣، ٤) الحديث سبق تخريجه .

٣ ـ تمرد الظواهر الكونية، فيكون تلوث الهواء والماء، وتكثر الزلازل والخسوف، وتقع كوارث لا حصر لها فى البرِّ، والبحر، والجو، قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ...** ﴾ [الروم : ٤١].

ولعل ما نزل بقارون يشرح ذلك ويؤكده، قال تعالى : ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)** ﴾ [القصص] .

وأما سبيل تكفير الذنوب فكثيرة، منها :

١ ـ التوبة النصوح، لقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ...** ﴾ [التحريم : ٨] .

٢ ـ المحن ، والابتلاءات، والمصائب بكل أنواعها وصنوفها، لقوله ﷺ : « ما من مصيبة تُصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها » (١) .

وقوله ﷺ : « ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همٍّ، ولا غمٍّ، ولا حزَن، ولا أذى ولا غم ـ حتى الشوكة يُشاكها ـ إلا كفَّر الله بها من خطاياه » (٢) .

٣ ـ العقوبات الدنيوية من القصاص، والحدود، والتعازير، ونحوها، لقوله ﷺ : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرفوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم، وأرجلكم، ولا تعصوا فى معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه . . . » (٣) .

٤ ـ اتباع السنة فى كل شأن من شؤون الحياة ، وفى كل ناحية من نواحيها ، لقوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)** ﴾ [آل عمران] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المرضى : باب: ما جاء فى كفارة المرض ص ٩٩٩ رقم ٥٦٤٠ من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المرضى : باب: ما جاء فى كفارة المرضى، ص ٩٩٩ رقم ٥٦٤١ من حديث أبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة ﵄ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: منه ص ٦ رقم ١٨ من حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا بهذا اللفظ .

٥ ـ عفو أصحاب الحقوق عن حقوقهم، لقوله ﷺ : « من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مالٍ أو عرضٍ فليأته، فليستحلها منه قبل أن يُؤخذ، وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته، فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ فى النار »[١] .

٦ ـ اجتناب الكبائر، لقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء] .

٧ ـ تقوى الله المتمثلة فى توحيد الله، وعبادته وحده، والنزول على حكمه، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ... ﴾ [الأنفال : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] .

وقال ﷺ : « اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها . . . »[٢] .

٨ ـ المواظبة على دعاء كفارة المجلس : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جلسَ فى مجلسٍ فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفِرَ له ما كان فى مجلسه ذلك »[٣] إلى غير ذلك من السُبُل التى تُكفِّر الذنوب .

الجانب الرابع : منزلة التوبة فى الإسلام وأهميتها، ووجه الحاجة إليها مع الأدلة على ذلك :

للتوبة فى ميزان الإسلام مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة، حسبنا :

١ ـ أن رب العزة أمر بها على سبيل الوجوب العينى الذى لا يعفى منه أحدٌ، فقال تعالى : ﴿ ... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ [النور] ، وقال

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحلَّلها له، ص ٣٩٥ رقم ٢٤٤٩ من حديث أبى سعيد وأبى هريرة مرفوعًا بنحوه .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب: ما جاء فى معاشرة الناس، ص ٤٦٠ رقم ١٩٨٧ من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح» .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الدعوات : باب: ما يقول إذا قام من مجلسه، ص ٧٨٥ رقم ٣٤٣٣ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث سهيل إلا من هذا الوجه » .

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾ [التحريم : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ... ﴾ [هود : ٣]

وأن الرسول ﷺ أمر بها كذلك، فقال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله، واستغفروه، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » (١) .

٢ ـ أنها تكون سببًا فى محبّة الله والعبد، ومن أحبَّه الله أعانه، وأيَّده بكل صور الإعانة والتأييد، قال تعالى : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

٣ ـ أنها تكون سببًا فى الحياة الطيبة فى هذه الدنيا من : سعة الرزق، وكثرة الولد والعافية، والقوة، وراحة البال، قال تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ... ﴾ [هود : ٣] .

وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح] ، وقال تعالى على لسان هود عليه السلام : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ... ﴾ [هود : ٥٢] .

٤ ـ أنها تكون سببًا فى تكفير الذنوب، ومحو السيئات، بل تبديل ذلك حسنات، قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان] .

٥ ـ أنها تكون سببًا فى أخوة الدين، والدخول فى حظيرة المؤمنين، قال تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ... ﴾ [التوبة : ١١]، وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) ﴾ [النساء] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب: استحباب: الاستغفار والاستكثار منه، ص ١١٧٤ رقم ٦٨٥٩ من حديث الأغرّ بن يسار المزنى رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

٦ ـ أنها مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ... ﴾ [النساء] .

٧ ـ أنها تكون سببًا فى صقل القلب، وتنويره، بحيث يدبُّ فيه الأمن والأمان والسكينة، قال رسول اللهﷺ : « إن العبد إذا أخطأ نُكِتَتْ فى قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، وإن عاد زيد فيه، حتى تعلو قلبه، وهو الرَّان الذى ذكر الله : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين: ١٤] » (١) .

٨ ـ أنها سبب من أسباب: فرح الرب بعبده بصورة أشد من فرح من عثر على شىء ثمين بعد فقده، قال رسول اللهﷺ : «لله أفرح بتوبة العبد من رجلٍ نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلته، حتى اشتد عليه الحرُّ والعطش، أو ما شاء الله، قال : أرجعُ إلى مكانى، فرجع فنام نومةً، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده » (٢) .

٩ ـ أنها تفتح باب: الأمل أمام العاصى كى يتابع المسيرة إلى نهايتها، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] .

١٠ ـ أنها تهيئ المرء لبيع نفسه، وما تملك لله عزَّ وجلَّ بيعةً صادقةً لا رجعة فيها، ولا نقض، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ [التوبة] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب: ومن سورة ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ﴾ ص ٧٦١ رقم ٣٣٣٤، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب: ذكر الذنوب ص ٦١٨ رقم ٤٢٤٤، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للترمذى، وعقَّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات : باب: التوبة ص ١٠٩٧ رقم ٦٣٠٨، ومسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب: فى الحض على التوبة، والفرح بها، ص ١١٨٩ ـ ١١٩١ رقم ٢٧٤٤ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

وبالجملة فإنها طريق النجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة، لقوله سبحانه : ﴿ ...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ [النور].

وإذا كانت هذه منزلة التوبة فى الإسلام، فإنها مهمَّة فى حياة العبد، والحاجة إليها ماسَّة فى كل لحظة من لحظات حياته، وعلى أىِّ حالٍ يوجد أو يكون عليها .

الجانب الخامس : سبيل التحلى بالتوبة والإنابة إلى الله :

سبيل التحلى بالتوبة والإنابة إلى الله كثيرة، نذكر منها :

١ ـ استحضار عواقب التمادى فى المعصية، فردية كانت هذه العواقب أو جماعية، دنيوية أو أخروية، فإن من شأن هذا الاستحضار تحريك القلب وانتفاضته، وإثارة الأحاسيس والمشاعر بحيث يصدر الأمر من القلب للجوارح أن تقلع، بل أن تتبع السيئة الحسنة تمحها، ويصير المرء ضمن ركب الفارِّين إلى الله رب العالمين .

٢ ـ تأمل النعم التى أسبغها الله عليه ظاهرة وباطنة، وهل يليق بالمرء أن يستخدمها فى معصية الله ورسوله، وهى التى أعطيت له لتستخدم فى طاعته وشكره، كما قال سبحانه : ﴿... كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) ﴾ [النحل] .

٣ ـ تذكر أن الله أمر بالتوبة، وحض عليها رسول اللهﷺ ، وهو سبحانه يفتح باب:ه، ويبسط يده ليلاً ونهارًا لاستقبال التائبين، والعفو عن المذنبين، كما جاء فى الحديث هنا : « إن الله يبسط يده ... »(١) وأن ذلك لن ينقطع إلا بوقوع الروح فى الحلقوم، أو طلوع الشمس من مغربها .

٤ ـ الوقوف على منزلة التوبة فى الإسلام، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على المسارعة، والإنابة، والرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ .

٥ ـ النظر فى حال التائبين من لدن الأنبياء والمرسلين إلى عموم العباد، وكيف أن الله قَبِلَ توبة من تاب، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء، أو ملأت طباق الأرض، فإن من شأن هذا النظر حمل المرء العاصى على الإقلاع عن الذنب، والسير فى طريق المتقين اقتداءً وتأسيًا، أو على الأقل محاكاةً وتشبهًا .

٦ ـ اصطفاء الصالحين، ومصاحبتهم، فإن العادة جرت : أن هؤلاء يُذكِّرون المرء بالله عند نسيانه، ويعينونه عند ذكره، وقد جاء : « مَنْ يُرد الله به خيرًا يهده خليلاً صالحًا، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه »(٢) ، وهذا يكون آكد بعد التخلى عن معايشة

---

(١) سبق تخريج الحديث .

(٢) سبق تخريج هذا الأثر فى الجزء الأول .

أصدقاء السوء ـ إن وجدوا ـ بل مقاطعتهم إن ظلوا متمادين فى لهوهم، وباطلهم، لقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] .

٧ ـ معرفة حقيقة التوبة وشروطها، وكيفية التحلى بها، فإن هذا من شأنه تسهيل أمر الأخذ بها، لكون المرء عدوَّ ما يجهل، وقد قال الله عز وجل : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ... ﴾ [يونس : ٣٩] .

٨ ـ الدعاء بإلحاح وصدق ـ سيما فى الأوقات الأكثر أو الأشد إجابة ـ التوفيق إلى التوبة، والإعانة، والقبول، فإن الدعاء هو العبادة .

٩ ـ استحضار أن الآجال غير معلومة : وعلى العاقل أن يبادر بالتوبة قبل أن يباغته الأجل، وحينئذ يندم يوم لا ينفع الندم، قال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون]

١٠ ـ الاعتراف بالذنب، والتجرد من الحول والقوة، واللجوء إلى حول الله وقوته، فإن ذلك يكون من بين أسباب: توفيق الله للعبد أن يتوب عليه، وأن يقبل منه، وحسبنا ما صنعه يونس عليه السلام حين صار فى بطن الحوت، إذ قال : ﴿ ... لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ما يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها :

١ ـ أن يُوقنَ العبدُ سعةَ رحمة الله، وفضله، وسوء أدب نفسه، وإجرامه، حيث يمتنَّ عليه بنعم لا تعدُّ ولا تُحصى ليستخدمها فى طاعته، والانقياد له، ولكنه يستخدمها فى معصيته، والخروج على حكمه، ومن هذه النِّعَم : فتح باب: التوبة أمامه بالليل والنهار حت يقع الروح فى الحلقوم، وتطلع الشمس من مغربها، وعليه اهتبال هذه الفرصة ، والانتفاع بهذه النعمة ، بالإقلاع عن خطاياه ، ورد المظالم إلى أصحابها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والعزم الأكيد على عدم العود، وإن قُطِّعَ وحُرِّقَ بالنار .

٢ ـ أن يلزم العبد تجديد التوبة مع كل ذنب طارحًا عنه شبح اليأس والقنوط، حيث دعاه ربُّ العزَّة إلى ذلك بقوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر] .

٣ ـ أن يحذر العبد التسويف، فإن الأجل محدود، وغيب لا يعلمه إلا الله، وربما طرقه الموت وهو فى غمرة التسويف، فتكون الخسارة، والبوار، والندم والحسرة حين لا ينفع الندم والحسرة، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر] .

الحديث السابع والثلاثون

عن أبى يحيى : صهيب بن سنان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الزهد : باب: المؤمن أمره كله خير، ص ١٢٩٥ رقم ٧٥٠٠، وأحمد فى : المسند ٤/ ٣٣٢ (٣١/ ٢٦٤ رقم ١٨٩٣٤، ٣١/ ٢٦٨ ـ ٢٨٩ رقم ١٨٩٣٩)، وابن حبان فى : الصحيح رقم ٢٨٩٦، والطبرانى فى : المعجم الكبير رقم ٧٣١٦، وفى : المعجم الأوسط رقم ٣٨٦١، والبيهقى فى : السنن ٣/ ٣٧٥، وفى : الشعب رقم ٩٩٤٩، وابن قانع فى : المعجم ٢/ ١٨، كلهم من حديث صهيب ﷺ مرفوعًا .

المعنى الإجمالى للحديث :

يقين المسلم أن ربَّه خيرٌ وأبقى، وأنه سبحانه لا يفعل إلا كل خير، ولا يقضى له إلا كلَّ حسن وجميل، وعليه فإن أعطاه ما يسرُّ نفسه من رخاء ونحوه وظَّف ذلك فيما يرضيه سبحانه، شكرًا له على هذا العطاء ليدوم، بل ليزيد، فكان ذلك خيرًا له، وأى خير، وإن ابتلاه بما يسوءه من شدة ونحوها، عمل على دفع ذلك بما يملك من أساليب ووسائل لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، ومتحليًا بالصبر والتحمّل، فيظفر برضا الله المتمثل فى الأجر والمثوبة دنيا وأخرى، فكان ذلك أيضًا خيرًا له، وأى خير .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن لفْتَ النظر إلى هذه الحقيقة من خلال حمل المخاطب والسامع، على الاستغراب والتعجب من حال المؤمن، حيث هى خير محض، إن كانت سرَّاء كان معها الشكر، وإن كانت ضراء كان معها الصبر، وفى كل الأجر والمثوبة، وذلك لا يكون لأحد من المكلفين إلا المؤمن، لما يتمتع به من إيمان صحيح، ويقين صادق، انتهيا به إلى أن تكون حياته دائرة بين الشكر والصبر .

ولكى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر ، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : أبرز سمات المؤمنين كما جاءت فى الحديث، وفى نصوص أخرى.

الجانب الثانى : ماهية المؤمن الموسوم بالسمات المذكورة آنفًا، وطريق إيجاد هذا المؤمن .

الجانب الثالث : ماهية الشكر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلى به .

الجانب الرابع : ماهية الصبر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلى به .

ودونك البيان :

الجانب الأول : أبرز سمات المؤمنين كما جاءت فى الحديث، وفى نصوص أخرى:

للمؤمن سمات يُعرف بها، جاء بها الحديث ونصوص أخرى، وأبرزها :

١ ـ الشكر فى السرَّاء، والصبر فى الضرَّاء، لقوله ﷺ : « إن أصابتهُ سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابتهُ ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له » .

٢ ـ تأمين الناس على دمائهم وأموالهم، لقوله ﷺ : « والمؤمن مَن أمِنَهُ الناس على دمائهم، وأموالهم » [(١)] .

ولقوله أيضًا : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » ، قيل : ومن يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه » [(٢)] .

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه الترمذى فى : السُّنن : كتاب الإيمان : باب: ما جاء فى أن المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، ص ٥٩٧ رقم ٢٦٢٧، والنسائى فى : السُّنن : كتاب الإيمان : باب: صفة المؤمن، ص ٦٨٦ رقم ٤٩٩٨ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا، وأوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده . . . »، وعقَّب الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » وفى الباب: عن جابر، وأبى موسى، وعبد الله بن عمرو بن العاص »، وأخرج ابن ماجه نحوه : كتاب الفتن : باب: حرمة دم المؤمن، وماله، ص ٥٦٥ رقم ٣٩٣٤ من حديث فضالة بن عبيد مرفوعًا بلفظ : « المؤمن مَن أمنه الناس على أموالهم، وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا، والذنوب » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب: إثم مَن لا يأمن جاره بوائقه، ص ١٠٥٢ رقم ٦٠١٦ من حديث أبى شريح مرفوعًا بهذا اللفظ، وأخرج مسلم نحوه : كتاب الإيمان : باب: بيان تحريم إيذاء الجار، ص ٤١ رقم ١٧٢/١٧٣ من حديث أبى هريرة مرفوعًا، ومعنى (بوائقه) أى : شرّه، انظر : المعجم الوجيز ، ص ٦٧ .

٣ ـ عدم موالاة مَن يحادُّون الله ورسوله والمؤمنين، ولو كانوا ذوى قربى، لقوله سبحانه : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] .

٤ ـ امتثال حكم الله ورسوله، ولو كان خلاف هوى النفس، لقوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴾ [النور : ٥١] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء] .

٥ ـ وجل القلوب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته سبحانه، لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ... ﴾ [الأنفال : ٢] .

٦ ـ التوكل على الله بالأخذ بالأسباب: البشرية قدر الطاقة والإمكان، مع الاعتماد التام على الله، والاستعانة به قبل الأسباب: وبعد الأسباب: لقوله سبحانه : ﴿ ... وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال] .

٧ ـ إقام الصلاة والإنفاق مما رزق الله، لقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾ [الأنفال] .

٨ ـ الإيمان بالله وملائكته، وجميع كتبه، وكل رسله من غير فرق، وكذلك الإيمان باليوم الآخر، لقوله سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ [البقرة] .

٩ ـ موالاة المؤمنين والمؤمنات بالإيواء، والنصرة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ونحو ذلك، لقوله سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ... ﴾ [الأنفال: ٧٤].

١٠ ـ الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ [الحجرات: ١٥].

١١ ـ التنزه عن اللغو، لقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون]

١٢ ـ حفظ الفروج إلا عما أحلَّ الله لهم، لقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

١٣ ـ أداء الأمانات، ورعاية العهود، لقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

١٤ ـ الصدق مع الله، لقوله سبحانه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٥ ـ إكرام الضيف، وحسن الجوار، والصمت إلا عن الخير، لقوله ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »[(١)].

١٦ ـ محبة الخير للمؤمنين محبته لنفسه، لقوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه »[(٢)].

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب: باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ص ١٠٥٢ رقم ٦٠١٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: الحث على إكرام الجار، والضيف... ص ٤١ رقم ١٧٤/ ٧٥، كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه، ص ٥ رقم ١٣، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحبَّ لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ص ٤١ رقم ١٧٠، ١٧١/ ١٧١، ١٧٢ كلاهما من حديث أنس بن مالك مرفوعًا بهذا اللفظ.

١٧ ـ الحياء، لقوله ﷺ: « . . . والحياء شعبة من الإيمان » (١) .

١٨ ـ التواضع، لقوله ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كِبر » (٢) .

١٩ ـ محبة لقاء الله والفرح بذلك، لقوله ﷺ: « المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله، ورضوانه، وجنته أحب لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه . . . » (٣) .

٢٠ ـ الإشفاق على نفسه من ذنوبه، لقوله ﷺ: « المؤمن يرى ذنوبه كأنه تحت جبل يخاف أن يقع عليه . . . الحديث » (٤) .

٢١ ـ القناعة، أو الرضا بالقليل، لقوله ﷺ: « المؤمن يأكل فى معىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (٥) .

٢٢ ـ الفرح بالحسنة عند اقترافها، والحزن للمعصية لدى ارتكابها، لقوله ﷺ: «مَن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن » (٦) .

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان : باب: أمور الإيمان، ص ٥ رقم ٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: بيان عدد شُعب الإيمان، ص ٣٨ ، ٣٩ رقم ١٥٢، ١٥٣/ ٥٧ ، ٥٨ كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، ولفظه : « الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة، والحياء شعبة من الإيمان » .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: تحريم الكبر وبيانه، ص ٥٤ رقم ٢٦٥ ـ ١٤٧/٢٦٧ ـ ١٤٩ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا به .

(٣) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب: من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه . . . ص ١١٦٨ رقم ١٥/٦٨٢٢، والترمذى فى : السُّنن : كتاب الجنائز : باب: ما جاء فيمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ص ٢٥٧ رقم ١٠٦٧ كلاهما من حديث عائشة ﷺ مرفوعًا، وعقَّب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الدعوات: باب: استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة ٨/ ٨٣، ٨٤، والترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة: باب: منه ٤/ ٦٥٨ رقم ٢٤٩٧، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٨٣ كلهم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا، ولفظه: « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب: مرَّ على أنفه، فقال به هكذا ».

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأطعمة : باب: المؤمن يأكل فى معىً واحد ٧/ ٩٢، ٩٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأشربة : باب: المؤمن يأكل فى معىً واحد ٣/ ١٦٣١، ١٦٣٢ من حديث ابن عمر، وجابر، وأبى موسى ﷺ مرفوعًا، واللفظ لمسلم .

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب: ما جاء فى لزوم الجماعة، ص ٤٩٧، ٤٩٨ رقم ٢١٦٥ من حديث ابن عمر، قال : خطبنا عمر بالجابية، فقال : يا أيها الناس إنى قمتُ فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال : « أوصيكم بأصحابى . . . » ، وفى آخره : « مَن سرته حسنته، وساءته سيئته، فذلكم المؤمن » ، وعقَّب بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

٢٣ ـ الغيرة على دماء المسلمين ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وسائر حرماتهم ، لقوله ﷺ : « المؤمن يغار للمؤمن، والله أشدُّ غيرًا » (١) .

٢٤ ـ الترفع عن أذى الغير بطعن أو لعن، أو سبّ ونحو ذلك، لقوله ﷺ : «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء » (٢) .

٢٥ ـ الإفادة من العثرات، لقوله ﷺ : « لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين » (٣) .

٢٦ ـ الكرم فى كل شيء حتى فى الخصومة، لقوله ﷺ : « أعفُّ الناس قِتْلة أهلُ الإيمان » (٤) .

٢٧ ـ معرفة الفضل لذوى الفضل ، لقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر] .

٢٨ ـ الإفادة من كل نافع بغضِّ النظر عن مصدره مادام لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، لقوله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ الناس بها » (٥) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب: غيرة الله تعالى، وتحريم الفواحش، ص ١١٩٧ رقم ٦٩٩٩/٢٧٦١/٣٨، وأحمد فى : المسند، ص ٥٤٧ رقم ٧٢٠٩، ص ٥٩٧ رقم ٧٩٨١، ص ٦٩٧ رقم ٩٦٤٠ كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب: ما جاء فى اللعنة، ص ٤٥٨ رقم ١٩٧٧، وأحمد فى : المسند، ص ٣٢٨ رقم ٣٨٣٩، ص ٣٣٦ رقم ٣٩٤٨ كلاهما من حديث عبد الله ابن مسعود ﷺ مرفوعًا، وعقّب الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن غريب، وقد رُوى عن عبد الله من غير هذا الوجه » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ص ١٠٦٨ رقم ٦١٣٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد : باب: لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، ص ١٢٩٥، رقم ٧٤٩٨/٦٣/٢٩٩٨ كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد : باب: فى النهى عن المثلة، ص ٣٨٥ رقم ٢٦٦٦، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الديات : باب: أعفُّ الناس قِتْلَةً أهل الإيمان، ص ٣٨٦ رقم ٢٦٨١، وأحمد فى : المسند، ص ٣٢٠ رقم ٣٧٢٨، ٣٧٢٩ كلهم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة، ص ٦١٠ رقم ٢٦٨٧، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد: باب: الحكمة، ص ٦٠٨ رقم ٤١٦٩، كلاهما من حديث إبراهيم بن الفضل، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، وعقّب الترمذى بقوله : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدنى المخزومى ضعيف فى الحديث من قِبل حفظه » .

٢٩ ـ التوسط والاعتدال فى كل شىء ، لقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] .

٣٠ ـ الاستقامة ، لقوله سبحانه : ﴿ ... فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ... ﴾

[فُصلت : ٦]

إلى غير ذلك من أبرز سمات المؤمن التى جاء بها الحديث، ونصوص أخرى.

وجماع ذلك كله : تنفيذ كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة قدر الطاقة، والإمكان، واجتناب كل ما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال، والأفعال الظاهرة والباطنة .

الجانب الثانى : ماهية المؤمن الموسوم بالسمات المذكورة آنفًا، وطريق إيجاد هذا المؤمن :

المؤمن الموسوم بالسمات المذكورة آنفًا هو العارف بربه معرفة تحمله على موالاته وحده، وموالاة من أذن بموالاته، والتبرؤ من كل ما سواه، مع النزول على حكمه ـ سبحانه ـ فى كل ما يأتى، وما يدع من الأقوال والأفعال: الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾

[يونس]

قال القرطبى : « المؤمن هنا : هو العالم بالله، الراضى بأحكامه، العامل على تصديق موعوده »(١) .

وطريق إيجاد هذا المؤمن :

١ ـ دوام النظر فى آيات الله فى الكون، وفى النفس، كيف خلقها الله على غير مثال سبق، وكيف نظمها بدقة وإحكام، وكيف هدى كلاً لما خلق، فإن النظر يقود إلى اليقين أن من يفعل ذلك كله فإنما لعلمه المحيط، وقدرته التامة، ومشيئته المحكمة، وحينئذ لا يكون إلا التسليم، والتعامل مع كل قدَر بما يناسبه من الشكر فى السرَّاء، والصبر فى الضرَّاء، والمدافعة، والاحتساب إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً، قال تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] .

---

(١) انظر : المفهم لما اشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبى ٦/ ٦٣٠ .

٢ ـ المعايشة الدائمة والطويلة لكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنة رسوله محمد ﷺ فإن فيهما تعريفًا حقيقيًا بالله ، وبما ينبغى له من الكمالات ، والتنزه عن كل نقص ، ومن ذلك استحالة أن يقضى لعبده قضاءً مجردًا عن الحكمة ، وإن جهلنا ماهية هذه الحكمة، وأن هذه الحكمة بسرائها وضرائها هى الخير كله ، وصدق الله الذى يقول : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة] ، وقال أيضًا : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾ [الحجرات] .

٣ ـ إمعان النظر فى أقضية إلهية وقعت، وقابلها أهلها بما ينبغى بما شرع الله، فكان الخير كله، مثل قضائه على يعقوب ويوسف بما نعرف، وكيف قابل يعقوب ويوسف ذلك بالتقوى والصبر، فكان النصر، والتمكين، وصدق ربُّ العزَّة، إذ قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ [يوسف] .

وإذ قال حكاية عن يوسف قوله لإخوته : ﴿ ... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ [يوسف].

ومثل قضائه لسليمان بالنعمة مُطلقًا يده التصرف فيها كيف يشاء فيقول : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص] .

فيخاف، ويرى ذلك ابتلاء ما بعده ابتلاء، فينقلب موظفًا هذه النعمة فى مرضاة الله، مُقرًا له بالفضل، ووجوب الشكر، وفى ذلك يقول رب العزَّة : ﴿... فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] .

ومثل قضائه خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار بلا ثمن على يد الخضر، وكيف كشف التأويل حكمة ذلك، وما تضمنه من خير لم يكن لأحد علمه إلا الله .

ومثل قضائه لنبيِّه محمد ﷺ صلح الحديبية، وكان نفرٌ من المسلمين أشدَّ الناس كراهية له، وكيف أثمر ذلك فتح مكة بعدُ، حتى سمَّاه رب العزة فتحًا، لكون كان السبيل لهذا الفتح، وفى ذلك يقول: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ

الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح] .

٤ ـ اتخاذ حزب يومى يُتلى فى الصباح والمساء يحوى آيات العلم والإحاطة الإلهية بكل شىء ، كقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾ [الأنعام] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيه شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) ﴾ [آل عمران]، وقوله سبحانه : ﴿ ... إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾ [هود] ، وقوله سبحانه : ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾ [الأحزاب : ٥١] .

إلى غير ذلك من آيات العلم الإلهى، التى إذا واظب المرء على تلاوتها صباح مساء فى كل يوم، فإنها تبنى فى داخله يقينًا كاملاً بإحاطته سبحانه بكل الأمر الذى يثمر التسليم بكل ما قضى وقدَّر، ويحمله على الشكر فى السَّرَّاء، والصبر فى الضرَّاء.

٥ ـ تدبر بعض الحوادث اليومية التى وقعت، وما علم بها أحد إلا أصحابها وكشفها الله للناس، ومنها حادثة حاطب بن أبى بلتعة، الذى كتب سرًا إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبى ﷺ لهم، وضرورة الاستعداد، وكشف الله ذلك لنبيّه بقرآن ما زال يُتلى إلى آخر الزمان، ويرسم فيه معالم التعامل مع الكفار .

فيقول سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾ [الممتحنة] .

ومنها حادثة النبي ﷺ مع زيد بن حارثة، وقد قال شيئًا لزيد، وأخفى خلافه، فأظهر الله ذلك بقوله : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ...** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

إلى غير ذلك من الحوادث اليومية الناطقة بعلمه ـ سبحانه ـ علمًا محيطًا، والتى إذا تدبَّرها المرء باستمرار قادته إلى اليقين بأنه سبحانه يعلم السر وأخفى، وأنه لا أجمل ولا أحسن، ولا أكرم مما قدره، وقضاه سبحانه وتعالى .

الجانب الثالث : ماهية الشكر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلى به :

الشكر لغة : له معانٍ منها :

١ ـ عرفان الإحسان ونشره، تقول : شكرتُ فلانًا : عرفتُ إحسانه ونشرتُه .

٢ ـ الثناء على الغير للمعروف، تقول : شكر فلان فلانًا : أثنى عليه لمعروفه .

٣ ـ الرضا باليسير، تقول : فرس شكور : إذا كفاه لسمنه العلف بالقليل .

٤ ـ الامتلاء : تقول : عين شكرى : ممتلئة [١] .

ولاتعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ هو شغل الوقت كله بالاعتراف بالجميل ونشره بكل الأساليب، والوسائل الممكنة، وإن كانت بسيطة أو محدودة .

الشكر اصطلاحًا : ذكر العلماء فى معنى الشكر اصطلاحًا عدة تعاريف، من أهمها :

قول ابن القيم : « الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا، وعلى جوارحه انقيادًا، وطاعة » [٢] .

ولخّص هذا التعريف الفيروزآبادى بقوله : « هو الاعتراف بنعمة المُنعِم على وجه الخضوع » [٣] .

صور الشكر :

والشكر على ما جاء فى تعريف ابن القيِّم صور، وأنواع هى :

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٢٠٧، والمفردات للراغب الأصفهانى، ص ٢٦٥، والصحاح للجوهرى ٢/ ٧٠٢، ٧٠٣، ولسان العرب ٤/ ٢٣٠٥ ـ ٢٣٠٨ بتصرف .

(٢) انظر : مدارج السالكين ٢/ ٢٢٤ .

(٣) بصائر ذوى التمييز ٣/ ٣٣٩ .

١ ـ شكر القلب : وهو تصور النعمة، وشهودها .

٢ ـ شكر اللسان : وهو الثناء على المنعم، والاعتراف بالنعمة .

٣ ـ شكر الجوارح : وهو الخضوع، والانقياد، والطاعة بترك ما يبغضه الله، ولا يرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وفعل ما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة كذلك [١] .

منزلة الشكر :

للشكر منزلة رفيعة فى دين الله تتمثل فى :

١ ـ وصف الله نفسه به فى قوله : ﴿ ... وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن] .

٢ ـ وصف الله اثنين من عباده من أولى العزم من الرسل به، إذ قال عن نوح عليه السلام : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء] .

وإذ قال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل] .

٣ ـ صلته الوثيقة بكل خُلُقٍ حميد، خاصة : الصبر، حتى قال نفرٌ من العلماء :

« الصبر يستلزم الشكر، ولا يتم إلا به، وبالعكس، فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان فى نعمة ففرضه الشكر، والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان فى بلية ففرضه الصبر، والشكر، أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله فى تلك البلية، فإن لله على العبد عبودية فى البلاء، كما له عليه عبودية فى النعماء » [٢] .

وقال ابن القيِّم : « كل ما يلقى العبد فى هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما : يوافق هواه ومراده، والآخر : لا يوافقه، وهو محتاج إلى الصبر فى كل منهما، فإنه مختبر ومُمتحن، النوع الأول : الموافق لغرضه، كالصحة، والسلامة، والجاه، والمال، وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج بشىء إلى الصبر فيها من وجوه : أحدها : ألا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر، والأشر، والفرح المذموم الذى لا يُحب الله

---

(١) المفردات، ص ٢٦٥، ٢٦٦ بتصرف .

(٢) انظر : فتح البارى لابن حجر العسقلانى ١١/ ٣١١ .

أهله، والثانى : ألا ينهمك فى نيلها ويبالغ فى استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، والثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها، ولا يضيِّعه فيسلبها، والرابع : أن يصبر عن صرفها فى الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته فى المكروه، ولا يصبر على السرَّاء إلا الصديقون » [١] .

٤ ـ أنه يكون سببًا فى مغفرة الذنوب، وحسن الأجر والمثوبة، قال تعالى : ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** (١٤٧)﴾ [النساء]، وقال تعالى : ﴿ **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** (١٤٤)﴾ [آل عمران] .

٥ ـ أنه قليلٌ فاعلوه، قال تعالى : ﴿ ... **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** (١٣)﴾ [سبأ] .

٦ ـ أنه به تدوم النعم بل تزيد وتُبارك، قال تعالى : ﴿ ... **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ... ﴾

[إبراهيم]

٧ ـ أنه يكون سببًا فى رضا الله عن صاحبه، ومَنْ رضى الله عنه فقد فاز فوزًا عظيمًا، إذ يقول ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » [٢] .

٨ ـ أنه مأمور به فى قوله سبحانه : ﴿ ... **وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** (١٥٢)﴾ [البقرة]، وفى قوله سبحانه : ﴿ ... **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** (٦٦)﴾ [الزمر] .

سبيل التحلى بالشكر :

لا سبيل للتحلى بالشكر إلا بمراعاة ما يلى :

١ ـ أن يتذكر المسلم أن الله أمر به ، وكذلك الرسول ﷺ ، وليس على المسلم أمام أمر الله، والرسول، إلا الخضوع والانقياد ظاهرًا وباطنًا، إذ يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٥١) **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٥٢)﴾ [النور] .

٢ ـ استحضار أن له منزلة رفيعة فى دين الله، ومكانة عالية، فإن المرء إذا أيقن منزلة الشىء ومكانته، أقبل عليه بما لديه من طاقات وإمكانات .

---

(١) انظر : عدة الصابرين، ص ٦٤ ـ ٦٦ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب : استحباب : حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، ص ١١٨٥، ١١٨٦ رقم ٢٧٣٤/ ٦٩٣٢ من حديث أنس بن مالك مرفوعًا به .

٣ ـ رؤية النعم التى تغمر المرء من أعلاه إلى أدناه بل وتحيط به من كل جانب، وما أجمل لو كانت هذه الرؤية للنعمة واحد تلو الأخرى، إنها حينئذ تجعل المرء يدرك عظمة ما أسداه ربه إليه، وأقلّ ما يصنعه أن يشكر المنعم بكليته: قلبًا، ولسانًا، وجوارح بما لا يتعارض مع ما فى الشرع الحنيف، وقد دعا ربُّ العزَّة ـ سبحانه ـ إلى المواظبة على هذه الرؤية، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة: ٧].

٤ ـ معايشة الشاكرين من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين: لاسيَّما ساعات الشدة والمحنة، فإن هذه المعايشة إن كانت صادقة تولد الاقتداء والتأسِّى، أو على الأقل المحاكاة والمشابهة، حسبنا موقفهﷺ بعد الانتهاء من غزوة أحد، إذ مع ما أصابه من جراحات، ونزف دم، وكسر لرباعيته، ومع ما أصاب أصحابه من قتل سبعين، وجرح الكثيرين، وقطع بعض أطرافهم، مع ذلك كله لم ينس شكر ربه على اللطف فيما قضى له ولأصحابه، فقال لهم بعد انتهاء المعركة: « اصطفوا لأثنى على ربى »، وقال كلمات جدير بكل مسلم أن يحفظها، ولا يكفَّ عن تلاوتها خاصة فى ساعات الشدائد، والمحن، ونصها: « اللهم لك الحمدُ كله، اللهم لا قابض لما بسطتَ، ولا باسط لما قبضتَ، ولا هادى لما أضللت، ولا مُضل لما هديت، ولا مُعطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيتَ، ولا مُقرّب لما باعدتَ، ولا مباعدَ لما قرَّبتَ، اللهم ابسط علينا بركاتك ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم، الذى لا يحول، ولا يزول، اللهم إنى أسألك النعيم يوم القَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إنى عائذٌ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتَ، اللهم حبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه فى قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يُكذِّبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق »[1].

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى: المستدرك ١/٥٠٦، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرِّجاه »، وقال الذهبى: « لم يخرجا لعبيد وهو ثقة، والحديث مع نظافة إسناده منكر »، وأخرجه أيضًا ٣/٢٣ من طريق آخر وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد ٦/١٢٢، وقال: « رواه أحمد، والبزار، واقتصر على عبيد بن رفاعة، عن أبيه، وهو الصحيح ... ورجال أحمد رجال الصحيح ».

٥ ـ الدعاء المستمر بالتوفيق للشكر، والإعانة عليه، فإن صدق الدعاء تكون مع الإجابة، وَعْدَ الله حقًا .

عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال : « يا معاذ، والله إنى لأحبُّك، والله إنى لأحبك، فقال : أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[١] .

وعن شداد بن أوس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى صلاته : « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحُسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذُ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم »[٢] .

الجانب الرابع : ماهية الصبر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلى به :

ماهية الصبر لغة وشرعًا :

لغة : يأتى الصبر فى اللغة على معانٍ منها :

١ ـ الشدة والقوة، تقول : لقيتُ الأمور بأصبارها، أى : بشدَّتها، وقوتها .

٢ ـ الجمع والضم، تقول: صبر على الأمر، أى: جمع نفسه وضمها عن الهلع.

٣ ـ الحبس، تقول : صبرتُ الدابة : حبستها بلا علف، وصبر فلان عند المصيبة صبرًا، أى حبس نفسه عن الجزع[٣] ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف : ٢٨]، أى: احبس نفسك معهم.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : تفريع أبواب الوتر : باب: فى الاستغفار، ص ٢٢٥ رقم ١٥٢٢، والنسائى فى : السنن : كتاب السهو : باب: الدعاء بعد الذكر ـ نوع آخر من الدعاء، ص ١٨٢ رقم ١٣٠٤، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٤٤، ٢٤٥ كلهم من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعًا به.

(٢) الحدثث بهذا اللفظ أخرجه النسائى فى : السنن : كتاب السهو : باب: الدعاء بعد الذكر : نوع آخر من الدعاء، ص ١٨٢، ١٨٣ رقم ١٣٠٥، والترمذى بنحوه فى السنن : كتاب الدعوات: باب: منه [دعاء: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر] ، ص ٧٧٧ رقم ٣٤٠٧، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٢٣، ١٢٥ رقم ١٧٢٤٣، ١٧٢٦٣ ، كلهم من حديث شداد بن أوس ﷺ مرفوعًا، وعقَّب الترمذى على حديثه بقوله : «هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه » .

(٣) انظر : الصحاح للجوهرى ٢/ ٧٠٦، ٧٠٧، ومعجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٢٩، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٤٣٨، مادة : « صبر » بتصرف كثير .

شرعًا :

جاءت عن العلماء تعريفات كثيرة للصبر، منها :

١ ـ وقف النفس على ما يحبُّه الله ويرضاه، يعنى : من الأفعال والأقوال التركية والفعلية، الظاهرة والباطنة .

٢ ـ الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

٣ ـ حبس النفس على ما تكره ابتغاء وجه الله، وطمعًا فى مرضاته [١] ومضمونها جميعًا واحد، وإن اختلفت الألفاظ والعبارات، كأنه : عزيمة صادقة، وهمَّة عالية، وإرادة قوية تحمل على جمع النفس وحبسها على وفق مراد الشرع، أو على كل ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال : التركية، والفعلية، الظاهرة، والباطنة، ابتغاء وجهه سبحانه، وطمعًا فى مرضاته .

أسماؤه :

للصبر أسماء كثيرة ، مآلها اتحاد المعنى والمضمون ، وإن اختلفت الألفاظ ، نذكر منها :

١ ـ الشجاعة ، وهى : حبس النفس فى القتال والمحاربة .

٢ ـ الكتمان، وهى : حبس النفس فى صون الكلام وعدم البوح به إلا لأهله .

٣ ـ القناعة أو الزهد، وهو : حبس النفس عن فضول العيش .

٤ ـ العفّة ، وهى : حبس النفس عن شهوة الفرج غير المشروعة .

٥ ـ الحلم، وهو : حبس النفس عن إجابة دواعى الغضب فى غير محله [٢] .

مراتب الصبر ومنزلة كل منها :

للصبر مراتب هى :

١ ـ الصبر على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ .

---

[١] انظر : المفردات للراغب الأصفهانى ، ص ٢٧٣، ومدارج السالكين ٢/ ١١٩، ١٢٠، ١٢٣ بتصرف كثير .

[٢] انظر : المفردات للراغب، ص ٢٧٣، بصائر ذوى التمييز للفيروزآبادى ٣/ ٣٨٣ بتصرف .

٢ ـ الصبر عن معصية الله ـ عزَّ وجلَّ .

٣ ـ الصبر على قدره وقضائه دون تبديل أو تغيير [١] .

ولا شك أن أكمل هذه المراتب وأرفعها إنما هو الثالث، لأن الإنسان قد يترك المعصية زمانًا مّا، وكذلك قد يفعل الطاعة زمانًا مَّا، ولكن أن يستمر على ذلك إلى آخر الزمان مع الرضا بقدر الله وقضائه دون تغيير أو تبديل، فهو دليل صدق العزيمة، وعلوّ الهمَّة، وقوة الإرادة والطمع فى رضا الله ومثوبته .

كما لا شك أن الصبر على الطاعة أكمل من الصبر عن المعصية؛ لأن الجهد المبذول فى الصبر عن المعصية هو مجرد الترك، وهو وإن كان شاقا إلا أن الأشق منه هو بذل الجهد فى الطاعة .

مراتب الصابرين :

للصابرين مراتب هى :

١ ـ المتصبر، وهو الذى يتكلف الصبر ويعمل على حمل نفسه عليه .

٢ ـ المصطبر، وهو الذى اكتسب الصبر فصار سجيّة له وخُلُقًا .

٣ ـ الصبور، وهو العظيم الصبر بحيث يفوق صبره صبر غيره[٢]،وعرّفه أبو حامد الغزالى بقوله : « الصبور هو الذى لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزِّل الأمور بقدرٍ معلوم، ويجريها على سُنَنٍ محدودة، لا يؤخرها عن آجالها المقدرة لها، ولا يقدمها على أوقاتها، بل يودع كل شىء فى أوانه على الوجه الذى يجب أن يكون كما ينبغى » [٣] ، وهذا هو صنيع الحكيم .

٤ ـ الصبَّار، الكثير الصبر، كأنه قد روعى فى تعريف : الصبور : الوصف، والكيف، وقد روعى فى تعريف الصبَّار : القدر والكم .

٥ ـ الصابر، وهو الوصف العام أو الجامع لكل ما تقدم[٤] .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٧ بتصرف كثير .

(٢) انظر : بصائر ذوى التمييز ٣/ ٣٧٨ .

(٣) انظر : المقصد الأسنى، ص ١٤٩ .

(٤) انظر : بصائر ذوى التمييز ٣/ ٣٧٨ .

فوائد الصبر وثمراته :

للصبر فوائد جمّة، وثمرات عظيمة تتمثل إجمالاً فى : محبة الله للصابرين ومعيتهم .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ [البقرة] .

أما تفصيلاً ، فتتمثل فى :

١ ـ عدم الاستجابة للمثيرات التى يحاول بها الأعداء جرّ المسلمين إلى معارك جانبية تبدد طاقتهم، وتشغلهم عن هدفهم الأسمى، وغايتهم الكبرى، وقد تكون أصيلة ولكن الواقع يأباها، ولا يسمح بها .

قال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران] .

٢ ـ مغفرة الذنوب، والهداية إلى الرشاد، قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة] .

يقول الألوسى : « الصلاة فى الأصل ـ على ما عليه أكثر أهل اللغة ـ الدعاء، ومن الله تعالى : الرحمة، وقيل: الثناء، وقيل: التعظيم، وقيل: المغفرة »[١] ثم يرجح بالدليل : أن المراد بالصلوات : المغفرة [٢] .

٣ ـ النجاة من مكائد الأعداء، ومؤامراتهم، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾ [آل عمران] .

٤ ـ الظفر بالمدد الإلهى، ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ [آل عمران] .

٥ ـ التمكين فى الأرض ، والإمامة فى الدين ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة] ، وقال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا

(١، ٢) انظر : روح المعانى ٢/ ٢٣، المجلد الأول .

الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

٦ ـ الظفر بعقبى الدار من الجنة وما فيها من الراحة، والنعيم المقيم، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد]، وقال تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾ [الفرقان] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) ﴾ [الإنسان] .

٧ ـ حماية غير المسلمين من الاستمرار فى كفرهم وغيّهم، إذ عدم صبر المسلم يُلقى فى روع غير المسلمين أن المسلمين على الباطل، وإلا لما انهاروا، فيستمرون على كفرهم، وصدق الله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾

[الفرقان]

٨ ـ التمكن من إنجاز الأعمال واحدًا بعد الآخر بلا يأس ولا قنوط، إذ مضت سنة الله فى خلقه، أن إنجاز أى عمل يحتاج إلى وقت وطاقة، وإمكانات، ولا يتم شيء من ذلك إلا بالصبر .

سبيل التحلى بالصبر :

إن السبيل للتحلى بالصبر تتمثل فى :

١ ـ استحضار العبد أنه مأمور به من قِبَل الله ورسوله، إذ يقول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، ويقول تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ [الأنفال] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » [١] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح . كتاب مناقب الأنصار : باب: قول النبى ﷺ للأنصار : «اصبروا حتى تلقونى على الحوض » ص ٦٣٦ رقم ٣٧٩٢ ، وكتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ : =

وإذا كان الصبر مأموراً به من الله ورسوله، فليس على المسلم الصادق سوى الامتثال، لقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)** ﴾ [النور] .

٢ ـ تذكّر أن من أسماء الله الحسنى، « الصبور »، يعنى : الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام، فقد جاء فى الحديث : « ليس أحد ـ أو ليس شىء ـ أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم، ويرزقهم »[1] ، وينبغى أن يكون نصيب العبد من هذا الاسم : التحلى بالصبر، والتحمل .

٣ ـ المعايشة الطويلة للنبيين من خلال قصصهم، وكذلك أتباعهم من المجاهدين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وكيف أن الصبر كان دأبهم، وديدنهم، وأنهم نالوا بسببه أعلى الدرجات، وأرفع المنازل، ومكّن لهم فى الأرض، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)** ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا** ﴾ [إبراهيم : ١٢]، وقال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)** ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)** ﴾ [آل عمران] .

ذلك أن هذه المعايشة تحمل على الاقتداء والتأسى ، أو على الأقل التشبه ، والمحاكاة .

٤ ـ مجاهدة النفس، وحملها حملاً على التحلى بالصبر مع المواظبة على ذلك، فإن هذه المجاهدة تكون سببًا فى منة الله على العبد بالصبر، لقوله ﷺ فى الحديث :

= «سترون بعدى أمور تنكرونها»، ص ١٢١٧ رقم ٧٠٥٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة، واستئثارهم، ص ٨٢٩ رقم ٤٧٧٩/٤٨ (١٨٤٥) كلاهما من حديث أسيد ابن حضير مرفوعًا به، وأحمد فى : المسند ١١١/٣، ١٦٧، ١٧١، رقم ١٢١٠٩، ١٢٧٣٦، ١٢٧٧٩، من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا به .

[1] الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب: الصبر فى الأذى، ص ١٠٦٤ رقم ٦٠٩٩ وكتاب التوحيد: باب: قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ص ١٢٦٩ رقم ٧٢٧٨ من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ مرفوعًا به .

« . . . ومَنْ يصبر يُصبِّره الله . . الحديث » [١] ، ولقوله : « . . . فمن صبر فله الصبر » [٢] .

٥ ـ صحبة المعروفين بالصبر، والتحمل، فإن ذلك من شأنه أن يقوِّى العزائم، ويسمو بالإرادات لتكون فى مستوى هؤلاء أو تقارب .

٦ ـ تذكر ثمرات الصبر وفوائده، فإن ذلك من شأنه حمل النفس على التحلى بالصبر، والتحمل .

٧ ـ استحضار أن غير المسلمين يصبرون، وإذا كان هذا شأنهم فأولى بالمسلمين أن يكونوا أصبر منهم، وأكثر تحملاً ، قال تعالى : ﴿ **وَصَابِرُوا** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

٨ ـ تعهد الآخرين للمرء، وذلك بتكليفه بمهام بسيطة، ثم مركبة، وهكذا حتى يصلب العود، ويقوى الساعد، وتتربَّى ملكة الصبر فى النفس على نحو ما صنع الأنبياء والمرسلون مع المدعوين فى سائر العصور، وفى كل البيئات .

ما يُستفاد من الحديث دعويا وتربويًا :

١ ـ أن الإيمان أجلّ نعم الله على العبد، حسبه أنه يكون سببًا فى إحاطة الخير بصاحبه فى السرَّاء والضراء المتمثل فى الأجر والثواب، والظفر بالجنة، وإذا كان هذا شأن الإيمان، فالمطلوب العض عليه بالنواجذ حتى الممات، وقد لفت رب العزة النظر إلى هذه النعمة بقوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)** ﴾ [آل عمران] .

٢ ـ ضرورة مواجهة النعمة بالشكر لفوائده، وثمراته التى ذُكِرَت آنفًا، وقد مضت السبل التى تساعد على التحلى بهذا الشكر .

٣ ـ ضرورة مواجهة الشدة بالصبر لفوائده وثمراته، التى ذُكِرَت آنفًا، وقد مضت السبل التى تساعد على التحلى بهذا الصبر .

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: الاستعفاف عن المسألة، ص ٢٣٨، ٢٣٩ رقم ١٤٦٩، وكتاب الرقاق : باب: الصبر عن محارم الله، ص ١١٢٢ رقم ٦٤٧٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: فضل التعفف والصبر، والقناعة، والحث عن كل ذلك ، ص ٤٢٣ رقم ١٢٤/٢٤٢٤ (١٠٥٣) كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا .

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤٢٧/٥ رقم ٢٤٠٢٢، ٢٤٠٣٣، ٢٤٠٤١ من حديث محمود بن لبيد ﷺ مرفوعًا به ، وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب ٤/ ٢٨٣، وعزاه إلى أحمد فى: المسند، وعقب بقوله : « ورواته ثقات »، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى : صحيح الجامع الصغير ١/ ١١٤، رقم ٢٨٥ .

الحديث الثامن والثلاثون

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال : « إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب: قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ وما ينهى عن الكذب، ص ١٠٦٣، رقم ٦٠٩٤، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة: باب: قبح الكذب، وحسن الصدق، وفضله، ص ١١٣٨ رقم ٦٦٣٧/١٠٣/٢٦٠٧أ، ٦٦٣٨/١٠٤/٢٦٠٧ب، ٦٦٣٩/١٠٥/٢٦٠٧جـ، والترمذى فى: السنن: كتاب البر والصلة: باب: ما جاء فى الصدق والكذب، ص ٤٥٧ رقم ١٩٧١، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه، كما أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الدعاء : باب: الدعاء بالعفو والعافية، ص ٥٥٠، رقم ٣٨٤٩ من حديث أبى بكر ﷺ مرفوعًا : « عليكم بالصدق، فإنه مع البر، وهما فى الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما فى النار، وسلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا » .

المعنى الإجمالى للحديث :

لا يستطيع المرءُ أداءَ رسالته، وواجبه فى هذه الأرض وحده، وإنما لابدَّ له من عون ربه، وتأييده ونصره، ولا يعطى الرب عونه عبده عطاءً خاصا، إلا بمطابقة ما يعتقد، وما يقول، وما يفعل، وهو المعبَّر عنه بالصدق، وتجنب التناقض الواقع بين الاعتقاد، والقول، والفعل، وهو المعبَّر عنه بالكذب بحيث يحمل التحلى بالصدق، وتجنب

الكذب على فعل كل بر، والتحرر من كل فجور فيحيا حياة طيبة فى هذه الأرض لا ضيق فيها ولا ضنك، ويظفر غدًا بالجنة بلا سابقة حساب ولا عذاب .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه، وبيانه الآن يتضمن : الدعوة إلى التزام الصدق، وتجنب الكذب، وقد اقترنت هذه الدعوة ببيان عاقبة كل من الصدق والكذب، فالأول يهدى إلى البر، والبر يهدى بدوره إلى الجنة، والآخر يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا شك أن المرء إذا أدرك ثمرة الصدق، وضرر الكذب إدراكًا يقينيا عمل على التحلى بالصدق من كل ما يصدر عنه من اعتقاد وقول، وعمل، والتحرر من الكذب فى كل ما يصدر عنه من اعتقاد، وقول، وفعل كذلك، فيقول : «إن الصدق يهدى إلى البر . . . وإن الكذب يهدى إلى الفجور . . . » .

ولكى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح، فإننا سنتناوله من هذه الجوانب:

الجانب الأول : ماهية الصدق، وصوره، ومكانته فى الإسلام، وثمراته، وسبيل التحلى به .

الجانب الثانى : ماهية البر، وصوره، ومكانته فى الإسلام، وثمراته، وسبيل التحلى به .

الجانب الثالث : ماهية الكذب، وصوره، وموقف الإسلام منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه .

الجانب الرابع : ماهية الفجور، وصوره، وموقف الإسلام منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه .

وذلك على النحو التالى :

الجانب الأول: ماهية الصدق وصوره، ومكانته فى الإسلام، وثمراته: وسبيل التحلى به:

ماهية الصدق لغة :

يأتى الصدق لغة على معانٍ، منها :

١ ـ قوة الشىء، وصلابته، تقول : هذا شىء صدق أى : صُلب، ورمح صدق أى: قوى .

٢ ـ الكمال من كل شيء، والجمع للأوصاف المحمودة، تقول : هذا صدق أى : كمال، وجمع للأوصاف المحمودة .

٣ ـ مطابقة المخبر للمظهر، تقول : هذا صدق، أى: مطابقة المخبر للمظهر [١] .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ هو : قوة الشيء وصلابته بصورة تحمل على الجمع للأوصاف المحمودة التى لا يتعارض فيها المخبر مع المظهر .

ماهية الصدق اصطلاحًا :

ذكر العلماء تعريفات عدة للصدق اصطلاحًا، نذكر منها :

١ ـ الصدق : مطابقة القول الضميرَ، والمخبر عنه معًا [٢] .

٢ ـ الصدق : مطابقة الحكم للواقع، وهذا هو ضد الكذب [٣] .

٣ ـ الصدق : ألا يكون فى أحوالك شوب، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى أعمالك عيب [٤] .

٤ ـ الصدق : استواء السر والعلانية، والظاهر والباطن، بألا تُكذِّب أحوالُ العبد أعماله، ولا أعمالهُ أحواله [٥] .

وكل هذه التعريفات ينقصها أن تكون المطابقة لما يقع من العبد ظاهرًا وباطنًا، قولاً وفعلاً غير متعارضة مع مبادىء الشرع الحنيف، ولذا يحسن أن يقال : « الصدق هو مطابقة ما يقع من العبد ظاهرًا من قول، أو فعل لباطنه بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف » .

صور الصدق :

للصدق صور، نذكر منها :

---

(١) انظر : لسان العرب ١٠/ ٩٣، ١٩٦، المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، ص ٢٧٧، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٣٣٩ بتصرف كثير .

(٢) انظر : المفردات للراغب، ص ٢٧٧ .

(٣) انظر : التعريفات للجرجانى، ص ١٣٢ .

(٤) انظر : أدب الدين والدنيا لأبى الحسن الماوردى، ص ٢٦١، ٢٦٢ .

(٥) انظر : دليل الفالحين لابن علان ١/ ٢٠٢ .

١ ـ صدق اللسان : وهو الإخبار عن الأشياء على ما هى عليه إلا لمصلحة شرعية من خدعة حرب، أو إصلاح بين متخاصمين، أو إرضاء زوجة، ونحو ذلك، وقد نبَّه النبى ﷺ بقوله : « اضمنوا لى ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم »(١) .

ولعلَّ خير نموذج يشرح هذه الصورة من الصدق : ما صدر عن كعب بن مالك فى غزوة تبوك، إذ يقول كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك حضرنى بثِّى(٢) ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخطه غداً ؟، وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى، فلما قيل لى: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا، زاح عنِّى الباطل، حتى عرفتُ أنه لن أنجو منه بشىء أبدًا، فأجمعتُ صدقه وصبَّح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكَّل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلما سلمتُ تبسَّم تَبسُّمَ المغضب، ثم قال: « تعالَ »، فجئتُ أمشى حتى جلستُ بين يديه، فقال لى : «ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ »(٣) ، قال : قلتُ : يا رسول الله، إنى والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنى سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلاً(٤) ، ولكنى والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديث كذب ترضى به عنِّى ليوشكنَّ الله أن يُسخطك علىَّ، ولئن حدثتُك حديث صدق تجد علىَّ فيه(٥) ،

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى : المستدرك : كتاب الحدود : باب : ست يدخل بها الرجل الجنة ٤/ ٣٥٨، ٣٥٩، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه »، وأيده الذهبى وقال : « فيه إرسال »، وأخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٢٣٣، ٣٢٣، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) حضرنى بثِّى ، أى : أشدَّ حزنى ، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ٥٩ .

(٣) قد ابتعتَ ظهرك، أى : اشتريتَ راحلتك من الإبل، إذ الظهر : الإبل التى يُحمل عليها وتُركب، يقال: عند فلان ظهر، أى : إبل، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/ ٥٩ .

(٤) ولقد أُعطيتُ جدلاً، أى : حجة، وقوة فى الكلام، إذ من معانى الجدل : مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة، المناظرة، والمخاصمة، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ١٤٩ .

(٥) فتجد علىَّ فيه : تغضب علىَّ فيه، يقال : وجد عليه يجد، وجدًا، وموجدةً أى : غضب، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ١٩٦ .

إنى لأرجو فيه عقبى الله [١] ، والله ما كان لى من عذر، والله ما كنتُ أقوى ولا أيسر منى حين تخلفتُ عنك، قال رسول الله ﷺ: « أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك » [٢] .

٢ ـ صدق النية والإرادة : وهو أن يكون باعث العبد فى كل ما يصدر عنه فى حركاته، وسكناته، وسائر أحواله، إنما هو امتثال حكم الله ـ عزَّ وجلَّ، والطمع فى مرضاته، وقد لفت النبى ﷺ النظر إلى هذه الصورة من الصدق بقوله : « مَن طلب الشهادة صادقًا أُعطِيها، ولو لم تصبه » [٣] .

وفى رواية : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » [٤] .

وجاءت الترجمة العملية لهذه الصورة من الصدق فى خبر أولئك المسلمين الذين تخلفوا عن حضور غزوة تبوك بعذر الفقر أو المرض من خلال حديثه ﷺ عن هؤلاء، إذ يقول جابر بن عبد الله الأنصارى رضي الله عنه : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة، فقال : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض »، وفى رواية : « إلا شركوكم الأجر » [٥] ، وفى رواية لأنس رضي الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : « إن أقوامًا خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شعبًا، ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر » [٦] .

---

(١) إنى لأرجو فيه عقبى الله : أن يعوضنى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خيرًا، وأن يثيبنى عليه، انظر : لسان العرب لابن منظور : ١/ ٦٠٦ ـ ٦١٧ بتصرف .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المغازى: باب: حديث كعب بن مالك، وقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] ص ٧٤٩ ـ ٧٥٢ رقم ٤٤١٨، ومسلم فى الصحيح: كتاب التوبة : باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه، ص ١٢٠٠ ـ ١٢٠٥ رقم ٧٠١٦/ ٥٣، ٧٠١٨ ـ ٧٠١٩/ ٥٤، ٥٥ كلاهما من حديث عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك مرفوعًا به، وبنحوه .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: استحباب: طلب الشهادة فى سبيل الله تعالى، ص ٨٥٤ رقم ٤٩٢٩/ ١٥٦/ ١٩٠٨ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: استحباب: طلب الشهادة فى سبيل الله تعالى، ص ٨٥٤ رقم ٤٩٣٠/ ١٥٧/ ١٩٠٩، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: القتال فى سبيل الله سبحانه وتعالى ، ص ٤٠٤ رقم ٢٧٩٧، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٤٤ كلهم من حديث سهل ابن حُنيف رضي الله عنه مرفوعًا .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض، أو عذر آخر، ص ٨٥٤ رقم ٤٩٣٢/ ١٥٩/ ١٩١١، ورقم ٤٩٣٣ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب المغازى: باب: منه، ص ٧٥٣ رقم ٤٤٢٣، وكتاب الجهاد: باب: من حبسه العذر عن الغزو، ص ٤٧٠ رقم ٢٨٣٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا .

وكذلك جاءت الترجمة فى حديث الثلاثة الذين هم أول من يُقضى عليهم يوم القيامة، إذ يقول النبى ﷺ: « إن أول الناس يُقضى عليه يوم القيامة : رجل استشهد، فَأُتِيَ به فعرفه نعمته، فعرفها، فقال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، قال : كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال : جرىء، فقد قيل : ثم أُمرَ به فسُحبَ على وجهه حتى أُلقِيَ فى النار، ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه، فعرفها، فقال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمتُ العلم، وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمتَ العلم ليُقال: إنك عالم، وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتى به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال : هو جواد، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى به فى النار » [١] .

٣ ـ صدق العزيمة والعمل، وهو الإتيان بالعمل على النحو الذى يحب ربنا ويرضى، مع المواظبة وعدم الانقطاع، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ [الحجرات : ١٥] ، وقوله سبحانه : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)** ﴾ [الأحزاب] ، وقوله سبحانه : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)** ﴾ [البقرة] .

وفى حياة الصحابة الكثير الذى يجسِّدها هذا النوع من الصدق :

هذا شداد بن الهادى، يقول : جاء رجلٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فآمن به، واتبعه، فقال : أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت

---

[١] الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ص ٨٥٢، ٨٥٣ رقم ٤٩٢٣/ ١٥٢/ ١٩٠٥ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه .

غزوة خيبر، غنم رسول اللهﷺ سَبْيًا فقسمه، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم [١] ، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا ؟ قالوا : قَسْمٌ قسمه لك رسول اللهﷺ ، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى ههنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم، فأموت، فأدخل الجنة، فقال : « إن تصدُق الله يصدقك »، ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فأُتى به رسول اللهﷺ يُحمل وقد أصابه سهمٌ حيثُ أشار، فقال النبىﷺ : « أهُوَ، هُوَ ؟ » فقالوا : نعم، قال: « صدق الله فصدقه »، ثم كفنه النبىﷺ فى جُبَّة النبىﷺ ثم قدَّمه، فصلى عليه، وكان مما ظهر من صلاته عليه : «اللهم هذا عبدك، خرج مجاهدًا فى سبيلك فقُتل شهيدًا، وأنا شهيدٌ عليه » [٢] .

مكانة الصدق فى الإسلام وثمراته :

للصدق مكانة رفيعة فى الإسلام، حسبنا :

١ ـ أن الله أوجبه على كل مسلم، فقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)** ﴾ [التوبة] .

كما أوجبه رسول اللهﷺ فقال : « اضمنوا لى ستا من أنفسكم، أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم . . . الحديث » [٣] .

وقال أبو سفيان فى حديثه فى قصة هرقل : قال هرقل : فماذا يأمركم ؟ يعنى النبىﷺ ـ قال أبو سفيان : قلتُ يقول : « اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة . . . الحديث» [٤] .

---

(١) ظهرهم : إبلهم التى يُحمل عليها، وتُركَب، يقال عند فلان ظهر : إبل، انظر : النهاية فى غريب الحديث والاثر لابن الأثير ٣/ ٥٩ .

(٢) الحديث أخرجه النسائى فى: السنن: كتاب الجنائز، وتمنّى الموت: باب: الصلاة على الشهداء ١/ ٦٣٤، ٦٣٥ رقم ١/ ٢٠٨٠ قائلاً: «أنبأنا سويد بن نصر، قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، قال: أخبرنى عكرمة بن خالد، أن ابن أبى عمار، أخبره عن شداد بن الهادى أن رجلاً من الأعراب. . . ، وساق الحديث بنحوه، وعقَّب عليه بقوله : « ما نعلم أحدًا تابع ابن المبارك على هذا، والصواب ابن أبى عمار، عن ابن شداد بن الهادى، وابن المبارك أحد الأئمة، ولعل الخطأ من غيره، والله أعلم »، والحاكم فى : المستدرك : كتاب معرفة الصحابة : باب: ذكر شداد بن الهادى رضي الله عنه ٣/ ٥٩٥، ٥٩٦ بنحوه، وسكت عنه الذهبى فى التلخيص .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

(٤) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب: دعاء النبىﷺ إلى الإسلام والنبوة . . . ص ٤٨٥ ـ ٤٨٧ رقم ٢٩٤١ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

٢ ـ أن الله وصف به نفسه، فقال : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]، وقال : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ [النساء] .

٣ ـ أن الله وصف به رسله، فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾ [مريم]، وأن أهل القبور يقومون من قبورهم لله رب العالمين مقرين بأن هذا وعد الرحمن ودليل صدق المرسلين، قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس] .

٤ ـ أن الله وصف به كتابه فقال : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

٥ ـ أن الله جعله أبرز سمات الصالحين، فقال سبحانه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ﴾ [الحشر] .

٦ ـ أن النبيﷺ جعل الصدق أساس كل بر، فقال : « عليكم بالصدق، فإنه مع البرِّ، وهما فى الجنة . . . »(١) ، وقال : « إن الصدق يهدى إلى البرِّ . . . »(٢) .

٧ ـ أن الله جعله سبب النجاة من أهوال يوم القيامة، بل والظفر بالجنة، إذ يقول سبحانه : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾ [المائدة]، ويقول: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٥)﴾ [الزمر].

ويقول النبيﷺ : « ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول اللهﷺ صادقًا من قلبه، إلا حرَّمه الله على النار »(٣) .

(١، ٢) الحديثان سبق تخريجهما .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهة ألا يفهموا، ص ٢٧، ٢٨ رقم ١٢٨ من حديث أنس بن مالك : أن رسول اللهﷺ ـ ومعاذ رديفه على الرحل ـ قال : « يا معاذ . . . الحديث » .

٨ ـ أن النبى ﷺ أخبر أن الصدق طمأنينة لكونه موافقًا الفطرة، وأن الكذب ريبة لكونه مصادمًا الفطرة، إذ قال ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة » (١) .

٩ ـ أن النبى ﷺ أخبر أن من مات على فراشه يبلغ بالصدق مراتب الشهداء، إذ يقول ﷺ : « مَن سأل الله الشهادة بصدقٍ بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه » (٢) .

١٠ ـ أن الله أخبر أن الصدق يكون سببًا فى الحشر مع النبيين، والشهداء، والصالحين، وأى شرف أرفع من هذا الشرف ؟ إذ يقول سبحانه : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)** ﴾ [النساء] ، ويقول سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾

[الحديد : ١٩]

وبالجملة فإنه يفتح أمام المتصفين به أبوابًا من البرِّ والمعروف تكون سببًا فى رضا الله والظفر بجنته، إذ يقول ﷺ : « إن الصدق يهدى إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدى إلى الجنة . . . » الحديث .

كما تكون سببًا فى رقى المجتمع المسلم وتقدمه، الأمر الذى يصيِّره أسوة وقدوة فى أعين المجتمعات غير الإسلامية .

حسبنا : أن هذا الصدق أغرى كثيرًا من المجتمعات غير الإسلامية الدخول فى الإسلام واحتضانه والدفاع عنه إبان الفتوحات الإسلامية فى آسيا وإفريقيا، وما استطاع المسلمون الوصول إليه فى أوروبا .

وكذلك يكون سببًا فى بلوغ مرتبة الصديقية، وهى مرتبة ما نالها إلا الخواص من الناس، كإبراهيم عليه السلام الذى وصفه ربه بقوله : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١)** ﴾ [مريم]،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صف القيامة، باب: حديث اعقلها وتوكل . . . ص ٥٧٢ رقم ٢٥١٨، والنسائى فى : السنن : كتاب الأشربة : باب: الحث على ترك الشبهات، ص ٧٧٢، ٧٧٣ رقم ٥٧١٤ كلاهما من حديث الحسن بن على رضي الله عنهما مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

وكإدريس من قبل الذى وصفه ربه بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم] ، وكأبى بكر رضي الله عنه الذى لُقِّب بالصدِّيق .

سبيل التحلى بالصدق :

وسبيل التحلى بالصدق، تتمثل فى :

١ ـ استحضار المسلم أنه مأمور من قِبَل الشارع، ولا يسع المسلم أمام حكم الشارع الحكيم إلا الامتثال، إذ هذه خاصة المؤمنين لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

[النور]

٢ ـ تذكر الفوائد، والثمرات الى يجنيها المرء من وراء تحليه بالصدق على النحو الذى ذُكِر آنفًا، فإن ذلك يحمل على ملازمة الصدق، وعدم التخلى عنه .

٣ ـ دوام النظر فى سير المعروفين بالصِّدق، فإن ذلك يحمل غالبًا على الاقتداء والتأسِّى ، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، على حد قول القائل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبُّهَ بالصالحين فلاحُ

٤ ـ صحبة القدوات الحيَّة الموسومة بالصِّدق، فإن هذه الصحبة غالبًا ما تكون سببًا فى التحلى بالصدق، والعض عليه بالنواجذ .

٥ ـ إظهار الاستحسان للصدق، بل وتشجيع الحريصين عليه التحلى به بوضعهم فى مراكز الصدارة، والإمامة كى يستمروا عليه ولا يتحولون عنه .

٦ ـ تذكر أن الصدق سيكون من بين ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة، وعليه أن يحرص عليه اليوم، حتى يجد جوابًا يقدِّمه لربه وقت السؤال والحساب .

قال تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

[الأحزاب]

الجانب الثانى : ماهية البر، وصوره، ومكانته فى الإسلام، وثمراته، وسبيل التحلى به :

ماهية البر لغة :

يأتى البر فى اللغة على معانٍ ، نذكر منها :

١ ـ الطاعة ، تقول : بَرَّ ربه ، يبرُّه : أطاعه، ومنه حديث النبي ﷺ لنسائه لما اعتكفن معه، وتسابقن فى ضرب الخيام فى المسجد، إذ قال : « البرَّ يُردْن . . . » (١) يعنى : الطاعة، والعبادة، ومنه حديث : « ليس من البرِّ الصيام فى السفر » (٢) .

٢ ـ الصلاح ، تقول : برَّ يبرَّ : صلح .

٣ ـ الصلة، تقول : برَّ رحمه : وصلها .

٤ ـ القبول ، تقول : حج مبرور : مقبول (٣) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ البر : الصلاح، والطاعة، المثمران الصلة والترابط، والقبول .

البر : اصطلاحًا :

البرُّ : اصطلاحًا : اسم جامع لكل صلاح، وخير مما يحبُّه الله، ويرضاه من الأقوال، والأفعال، الظاهرة والباطنة، وآيةُ البرِّ خير ما يترجم هذا التعريف .

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

[البقرة]

صور البرّ :

للبرّ صورٌ كثيرة ، منها :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الاعتكاف: باب: مَن أراد أن يعتكف، ثم بدا له أن يخرج، ص ٣٢٨ رقم ٢٠٤٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الاعتكاف : باب : متى يدخل من أراد الاعتكاف فى معتكفه، ص ٤٨٣، ٤٨٤ رقم ٦/ ١١٧٣/ ٢٧٨٥ كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا به، وبنحوه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الصوم : باب : قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه، واشتد الحر: «ليس من البر الصيام فى السفر»، ص ٣١٣، رقم ١٩٤٦، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الصيام: باب: جواز الصوم، والفطر فى شهر رمضان للمسافر فى غير معصية، ص ٤٥٦ رقم ٩١/ ٢٦١١ كلاهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا به .

(٣) انظر : الصحاح للجوهرى : ٢/ ٥٨٨، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ١١٦، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٥١ ـ ٥٤ بتصرف كثير .

١ ـ العقيدة الصحيحة ممثلة فى : الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر .

٢ ـ الأخلاق الحسنة ممثلة فى : الصدق، والوفاء، والعدل، والصبر، والمساواة، والعفاف، ونحوها .

٣ ـ الشعائر التعبدية من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ونحوها .

٤ ـ النظم والتشريعات المتعلقة بحفظ الضرورات الخمس : دينًا، ونفسًا، وعقلاً، وعرضًا، ومالاً .

مكانة البر فى الإسلام وثمراته :

للبرِّ فى الإسلام مكانة رفيعة ومنزلة عالية تتمثل فى :

١ ـ أن الله جعله جماع كل خير ومعروف، إذ يقول : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

٢ ـ أن الله جعله ثمنًا للمنازل الرفيعة فى الجنة، إذ يقول : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠)** ﴾ [المطففين] .

٣ ـ أن الله جعل رفقة الأبرار مطلبًا يسعى للظفر به أولوا الألباب : ، إذ يقول عن هذا الصنف من الناس : إنهم يناجون ربهم قائلين : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣)** ﴾ [آل عمران] .

٤ ـ أن الله وصف نفسه به، وأكرم به من وصف، إذ يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)** ﴾ [الطور] .

٥ ـ أن الله حلَّى به الملائكة، فقال سبحانه : ﴿ **فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)** ﴾ [عبس] .

٦ ـ أن النبى ﷺ أخبر أنه سيكون سببًا فى بركة العمر، إذ يقول ﷺ فيما روى ثوبان رضي الله عنه : « لا يزيد فى العمر إلا البرُّ . . . الحديث » (١) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب القدر : باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة : باب: فى القدر، ص ١٥، رقم ٩٠ كلاهما من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا، وأورده الألبانى فى: صحيح ابن ماجه رقم ٧٣، وعقب الترمذى على حديث بقوله: « حديث حسن غريب ».

وبالجملة فإنه يكون سببًا فى طمأنينة النفس، وانشراح الصدر، بحيث يقبل المرء على فعل كل جميل، وترك كل قبيح، ويجد لذلك لذة وحلاوة لا عدل لهما فى شىء من المحسوسات .

وقد جاء فى الحديث ما يشرح ذلك، إذ يقول النبىﷺ : « البرُّ ما اطمأنت إليه النفس، وانشرح له الصدر . . . »(١) .

سبيل التحلى بالبر :

يمكن التحلى بالبرِّ باتباع هذه السبيل :

١ ـ تذكر أن البرَّ منزلة رفيعة ، ومكانة عالية فى الإسلام على النحو الذى مضى آنفًا، فإن ذلك يولِّد فى النفس ميلاً قويًا، بل محبة لعمل البرِّ، والتوسع فيه .

٢ ـ معايشة البررة والأتقياء فى سيرهم من الأنبياء، والمرسلين، والمجاهدين، والصالحين، فإن ذلك يولِّد فى النفس محبة هؤلاء ومحاولة الاقتداء والتأسى بهم فى سائر أعمالهم التى جمعها البرُّ .

٣ ـ صحبة القدوات الحية من البررة والأتقياء، فإن صحبة هؤلاء من شأنها أن تحمل على محبة البرِّ، وتمثله واقعًا عمليًا فى دنيا الناس .

٤ ـ إظهار الاستحسان للبرِّ، وتشجيع الحريصين على التحلى به، وذلك بسؤالهم عنه، بل بوضعهم فى مراكز الصدارة، والإمامة كى يستمروا عليه، ولا يتحولون عنه.

٥ ـ الحرص على أن يكون الكبار صورة كريمة لبر فى نظر الناشئة والصغار كى يسهلوا عليهم الاقتداء والتأسى .

طائفة من الأحاديث الأخرى الواردة فى البرِّ :

وردت فى البرِّ طائفة من الأحاديث، غير حديث الباب: ، نذكر منها :

١ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ : « أربعون خصلة، أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة »(٢) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الهبة : باب: فضل المنيحة ، ص ٤٢٥ رقم ٢٦٣١ ، وأبو داود فى: السنن: كتاب الزكاة : باب : فى فضل سقى الماء ، ص ٢٤٩ رقم ١٦٨٣ كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما مرفوعًا به .

٢ ـ وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، وأحسبه قال: « وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر » [١] .

٣ ـ وعن أبى ذر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « عُرِضَت عليَّ أعمال أمتى، حسنها وسيئها، فوجدتُ فى محاسن أعمالها : الأذى يُماط عن الطريق، ووجدتُ فى مساوئ أعمالها : النخامة تكون فى المسجد لا تدفن » [٢] .

٤ ـ وعن أبى ذر ـ أيضًا ـ قال : قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلَق » [٣] .

٥ ـ وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « كل سُلامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس »، قال : « تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة »، قال : « والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » [٤] .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

الجانب الثالث : ماهية الكذب، وموقف الإسلام منه، وعواقبه : وسبيل التحرر منه، بل الوقاية :

ماهية الكذب، لغة :

يأتى الكذب فى اللغة على معانٍ ، منها :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب : الساعى على الأرملة، باب: الساعى على المسكين، ص ١٠٥١ رقم ٦٠٠٦، ٦٠٠٧، وكتاب النفقات : باب: فضل النفقة على الأهل، ص ٩٥٦ رقم ٥٣٥٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد : باب: فضل الإحسان إلى الأرملة، والمسكين، واليتيم، ص ١٢٩٠ رقم ٤١/ ٧٤٦٨ (٢٩٨٢) كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، ومن حديث صفوان بن سليم رضي الله عنه رقم ٦٠٠٦ عند البخارى .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب المساجد : باب: النهى عن البصاق فى المسجد، ص ٢٢٤، رقم ٥٧/ ١٢٣٣ (٥٣٣)، وأحمد فى : المسند ٥/ ١٨٠ ، كلاهما من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعًا .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب: استحباب: طلاقة الوجه عند اللقاء ، ص ١١٤٥ رقم ١٤٤/ ٦٦٩٠ (٢٦٢٦) من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلح : باب: فضل الإصلاح بين الناس، والعدل بينهم، ص ٤٤٢، رقم ٢٧٠٧، وكتاب الجهاد والسير : باب: فضل مَن حمل متاع صاحبه فى السفر، ص ٤٧٧، ٤٧٨ رقم ٢٨٩١، وباب: من أخذ بالركاب ونحوه، ص ٤٩٤ رقم ٢٩٨٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ص ٤٠٧ رقم ٥٦/ ٢٣٣٥ (١٠٠٩) كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به ، وبنحوه .

١ ـ ما يناقض الصدق، قال ابن منظور : « الكذب نقيض الصدق » [١] .

٢ ـ الخطأ، قال الأخطل :

كذبتك عينُك، أم رأيتَ بواسط غلس الظلام من الرباب: خيالا

٣ ـ الجبن، تقول : كذب فلان عن الثبات فى الحرب .

٤ ـ التعريض فى الحديث أو التورية، تقول : كذب فى الحديث أى : عرَّض فى الحديث، أو ورَّى [٢] .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ الكذب هو نقيض الصدق أو الخطأ إما جبنًا، وإما تعريضًا، وتورية .

اصطلاحًا : جاءت عدة تعريفات للكذب اصطلاحًا إذ عرَّفه :

١ ـ الجرجانى بقوله : « كذب الخبر : عدم مطابقته للواقع »، وقيل هو : « إخبار لا على ما عليه المُخبَر عنه » [٣] .

٢ ـ وابن حجر بقوله : « الكذب هو الإخبار بالشىء على خلاف ما هو عليه، سواء كان عمدًا أم خطأ » [٤] .

٣ ـ والجاحظ بقوله : « الكذب هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو به » [٥] .

٤ ـ والكفوى بقوله : « الكذب إخبار عن المخبر عنه على خلاف ما هو به، مع العلم بأنه كذلك »، وقيل : « عدم المطابقة لما فى نفس الأمر مطلقًا » [٦] .

وكل هذه التعريفات تحدد الكذب بأنه : « عدم المطابقة لما فى الواقع ونفس الأمر مطلقًا، أى أعم من أن يكون ذلك عمدًا أو سهوًا » .

موقف الإسلام من الكذب :

الكذب حرام فى الإسلام، ويأثم فاعله، إلا لمصلحة شرعية من خدعة حرب، أو إصلاح بين متخاصمين، أو تراضٍ بين زوجين، أو حماية حرمة مظلوم فى دم، أو مال، أو عرض، أو نحو ذلك، فإنه لا حرمة ولا إثم .

(١، ٢) انظر : الصحاح للجوهرى ١/ ٢١٠، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ١٥٩، ١٦٠، ولسان العرب لابن منظور ١/ ٧٠٤، ٧٠٥ مادة « كذب » .

(٣) انظر : التعريفات ، ص ١٨٣ .

(٤) انظر : فتح البارى ٦/ ٢٤٢ .

(٥) انظر : تهذيب الأخلاق ، ص ٣٢ .

(٦) انظر : الكليات ، ص ٥٥٦ .

يقول النبى ﷺ : « . . . وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزالُ الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يُكتب عند الله كذابًا » (١) .

وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مرفوعًا : « ليس الكذب الذى يصلح بين اثنين ـ أو قال : بين الناس ـ فيقول خيراً أو ينمى خيراً » (٢) ، زادت أم كلثوم فى رواية : « ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس كذبًا، إلا فى ثلاث، يعنى : الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها » (٣) .

قال ابن الجوزى : « وضابطه : أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب فهو مباح، إن كان ذلك المقصود مباحًا، وإن كان واجبًا فهو واجب، وهو مراد الأصحاب، ومرادهم هنا لغير حاجة، وضرورة، فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل » (٤) .

وقال ابن مفلح : « ويحرم الكذب لغير إصلاح، وحرب، وزوجة » (٥) .

ومن العلماء من جعل فى التعريض والتورية ما يُغنى عن الكذب لحديث عمران بن حصين، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما موقوفًا : « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » (٦) .

ولما ثبت عنه ﷺ من استخدام التورية ، بل إقرار الصحابة عليها ، إذ المحفوظ عنه ﷺ أنه كان إذا أراد غزوةً ورَّى بغيرها إلا غزوة تبوك لحال تخصُّها (٧) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلح : باب: ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس، ص ٤٣٩، رقم ٢٦٩٢، ومسلم فى : الصحيح: كتاب البر والصلة، باب: تحريم الكذب، وبيان ما يباح منه، ص ١١٣٧ رقم ٦٦٣٣/١٠١ (٢٦٠٥) كلاهما من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها مرفوعًا به .

(٣) هذه الرواية أخرجها مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب: تحريم الكذب، وبيان ما يباح منه، ص ١١٣٧ رقم ٦٦٣٣/١٠١ (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها مرفوعًا .

(٤) انظر : الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٤٤ .

(٥) انظر : الآداب الشرعية ١/ ٥٦ بتصرف .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى : الأدب المفرد، رقم ٨٨٥ موقوفًا على عمران بن حصين، وإسناده ـ كما يقول محقق الآداب الشرعية ١/ ٤٩ ـ صحيح، ورواه البيهقى فى : السنن الكبرى ١٠/ ١٩٩ بسند صحيح إلى عمر بن الخطاب موقوفًا عليه .

(٧) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى : باب: حديث كعب بن مالك، ص ٧٤٩ رقم ٤٤١٨ من حديث كعب بن مالك رضى الله عنه .

وجاء عنه ﷺ أنه قال فى رجل حر : « من يشترى العبد » (١) .

وسُئل ﷺ : « ممن أنت ؟ قال : « من ماء » (٢) .

وسُئل أبو بكر يوم الهجرة : مَن معك ؟ ، وكان رفيق النبى ﷺ فى ذلك ، فأجاب : « هادٍ يهدينى السبيل » (٣) .

عواقب الكذب :

للكذب عواقب خطيرة، وآثار وخيمة، نذكر منها :

١ ـ فقد الكذاب ثقة الناس، وثقة الناس بالمرء هى رأس ماله فى الأرض، فإذا فقد هذه الثقة فماذا بقى له ؟

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان خُلُقٌ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة، فما يزال فى نفسه عليه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة » (٤) .

٢ ـ الانغماس فى المعاصى والسيئات من مفرق الرأس إلى أخمص القدمين، الأمر الذى يعرض فى النهاية إلى النار، وبئس القرار .

جاء فى الحديث قوله ﷺ : « وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار » (٥) .

٣ ـ التغرير بالآخرين، لاسيما مَن لا خبرة لهم، ولا دراية فى الحياة، فيتحمل إثم نفسه، وإثم من غرَّر بهم من باب: : « . . . ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثار مَن تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا . . . » (٦) .

٤ ـ القلق والاضطراب النفسى، وذلك أن الكذَّاب يخشى أن ينكشف أمره وبسبب

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣/ ١٦١، والترمذى فى : الشمائل ٢٤٠، وابن حجر فى : الإصابة ٢/ ٥٤٧ وصححه .

(٢) انظر : تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبرى ت ٣١٠هـ (٢/ ٤٣٥)، وعيون الأثر فى المغازى والشمائل، والسير لابن سيد الناس ١/ ٢٤٨ بتصرف .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣/ ١٢٢، ٢١١، ٢٨٧، وابن سعد فى : الطبقات ١/ ٢٣٣ .

(٤) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٦/ ١٥٢، والبيهقى فى : السنن الكبرى ١٠/ ١٩٦، وعقب الأخير بقوله : « وإسناد صحيح » .

(٥، ٦) الحديثان سبق تخريجهما .

ذلك يعيش فى قلق، واضطراب، بل إنه ليخيَّل إليه أن كل حركة إنما تعنيه، كما قال سبحانه : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] .

سبيل التحرر من الكذب، بل الوقاية منه :

للتحرر من الكذب، بل الوقاية منه سُبُلٌ عديدةٌ، نذكر منها :

١ ـ اليقين بخطورة الكذب، وسوء عاقبته، فإن ذلك من شأنه أن يحمل العقلاء من الناس أن يبادورا بالتخلص من هذا الكذب، بل الوقاية منه، خشية التردِّى فى سوء العاقبة .

٢ ـ استحضار المسلم أنه مأمور بعدم الوقوف فى الكذب، وما على المسلم حين يسمع حكم الله إلا أن يتمثل، ويرضى ظاهرًا وباطنًا .

٣ ـ دوام النظر فى سير الكذابين، وسوء عاقبتهم، كالمنافقين، ونحوهم، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على التخلص من الكذب، بل الوقاية منه .

٤ ـ إحاطة المعروفين بالكذب بنخبة من الصادقين كى يساعدوا الكذابين فى التخلص من الكذب، بل الوقاية منه، إذ المرء على دين خليله، فلينظر المرء من يُخالل.

٥ ـ إظهار الاشمئزاز من الكذب، ومقاطعة المُصرِّين على الكذب، فلعل ذلك يكون رادعًا للكذابين أن يتمادوا فى كذبهم، وأن يستمروا على أخطائهم .

٦ ـ اليقين من اطلاع الله على الكذابين، وسؤالهم عن ذلك يوم القيامة فإن هذا اليقين من شأنه حمل العقلاء أن يتخلصوا من الكذب قبل أن تقع الواقعة، ويكون الندم حين لا ينفع الندم .

طائفة من الأحاديث الأخرى الواردة فى شأن الكذب :

جاءت طائفة من الأحاديث الأخرى الواردة فى شأن الكذب، نذكر منها :

١ ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتُمِنَ خان » (١) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: علامات المنافق، ص ٩ رقم ٣٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : خصال المنافق ، ص ٤٧ ، رقم ٥٩ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به .

٢ ـ عن أبى أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيت فى ربض الجنَّة لمن ترك المراء وإن كان مُحقا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا، وببيتٍ فى أعلى الجنة لمن حسُن خُلُقه » (١) .

٣ ـ عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: شيخ زان، وملك كذَّاب، وعائل مستكبر»(٢) .

٤ ـ عن حكيم بن حزام ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صَدَقا ، وبيَّنا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما ، وكذبا مُحِقَت بركة بيعهما » (٣) .

٥ ـ عن أبى بكرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » (ثلاثًا)، قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين »، وجلس، وكان متكئًا، فقال : « ألا وقول الزور »، قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (٤) .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

الجانب الرابع : ماهية الفجور، وصوره، وموقف الشارع منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه :

ماهية الفجور لغة : يأتى الفجور لغة على معانٍ، نذكر منها :

١ ـ الخروج، والظهور، تقول : فجر الماء : ظهر، وخرج، ومنه قوله سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة : ٦٠] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب: حسن الخلق، ص٦٨٠ رقم ٤٨٠٠ من حديث أبى أمامة ﷺ مرفوعًا به، وأورده الألبانى فى : الصحيحة رقم ٢٧٣، وقال عنه : « حديث حسن » .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمنِّ بالعطية، ص ٥٩، ٦٠ رقم ١٠٧ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا به .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب : إذا بيَّن البيِّعان، ولم يكتما ونصحا، ص ٣٣٤ رقم ٢٠٧٩ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب : الصدق فى البيع ، والبيان ، ص ٦٦٥، رقم ١٥٣٢ كلاهما عن حكيم بن حزام ﷺ مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشهادات : باب: ما قيل فى شهادة الزور، ص ٤٣٠ رقم ٢٦٥٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: الكبائر وأكبرها، ص ٥٣، رقم ٨٧ كلاهما من حديث أبى بكرة ﷺ مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

٢ ـ الكذب ، تقول : فَجَرَ فى يمينه : كذب .

٣ ـ الفساد، تقول : فَجَرَ أمرُ القوم : فسد [١] .

ولا تعارض ، إذ الفجور هو إظهار وإبراز كل ما هو كاذب وفاسد وقبيح .

اصطلاحًا : الفجور اصطلاحًا هو ـ كما يقول الجاحظ ـ الانهماك فى الشهوات، والاستكثار منها، والتوفر على اللذات، والإدمان عليها، وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها، وبالجملة هو : السَّرف فى جميع الشهوات [٢] .

صور الفجور ، وموقف الشارع منه :

للفجور صور كثيرة، منها : الكفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

ومنها : سفك الدماء، وهتك الأعراض، وسلب الأموال، وتفريق وحدة الصف، ونحوها، والشرع الحنيف حرم الفجور، وجعل النار جزاء الفجار، فقال: ﴿ **وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)** ﴾ [الانفطار]، وقال: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧)** ﴾ [المطففين].

وقال ﷺ ـ كما فى حديث الباب: : « وإن الفجور يهدى إلى النار » .

عواقب الفجور :

يكفى فى عواقب الفجور :

١ ـ التعذيب بالنار لأهل الفجور، وأىُّ عقاب أعظم من التعذيب بالنار .

٢ ـ البُغض، والكراهية لأهل الفجور، ذلك أن الفاجر مجاهرة بالمعصية، وهو فى مجاهرته قد فضح غيره ممن لهم تعامل معه، وهل يتوقع من هؤلاء الحبَّ لآخرين شهروا بهم، وفضحوهم على رؤوس الأشهاد .

٣ ـ الحرمان من تكليم الله للفجار ، والنظر إليهم ، والثناء عليهم ، يقول النبى ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، المنَّان الذى لا يعطى شيئًا إلا منَّه، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره » [٣] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٤٧٥، والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، ص ٣٧٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٧٤، ٦٧٥ بتصرف كثير .

(٢) انظر : تهذيب الأخلاق، ص ٢٨ .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

٤ ـ التهاون بالذنوب، كأنها لا شيء، وهذا بدوره يحمل على الإسراف والتمادى، يقول النبى ﷺ: «وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب: مرَّ على أنفه، فقال به: هكذا »(١).

٥ ـ إطلاق الفاجر العنان للسانه ؛ ليقع فيما يؤدى بصاحبه إلى ما فيه هلاكه وحتفه، يقول إبراهيم بن يزيد التميمى: « المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر، فإن كان كلامه له تكلم، وإن كان عليه أمسك، والفاجر إنما لسانه رَسْلاً ، رَسْلاً » (٢) .

سبيل التحرر من الفجور :

للتحرر من الفجور سبيل تتمثل فى :

١ ـ إغلاق الباب: الذى يؤدى إلى الفجور ، ألا وهو الكذب، وذلك بالتوبة، ورد المظالم إلى أصحابها فى حدود الطاقة، والوسع .

٢ ـ استحضار العواقب المترتبة على الفجور، على النحو الذى ذُكِرَ آنفًا، فإن ذلك الاستحضار إن كان صادقًا سيحمل على التوبة من الفجور، وعقد العزم على عدم العودة إليه مرة أخرى .

٣ ـ الانخلاع من صحبة الفجار، والتحول إلى صحبة الأتقياء البررة، فإن من يُرد الله به خيرًا يهده خليلاً صادقًا، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه .

٤ ـ قيام ولى الأمر بسد كل باب : يؤدى إلى الفجور، ثم تعهد الفجار بكل الأساليب والوسائل التى لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، وهذا له أعظم الأثر فى التحرر من الفجور، من باب : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

٥ ـ محاسبة النفس أولاً بأول بعد استحضار المثول بين يدى الله غدًا، والسؤال عن كل شيء من النقير والفتيل والقطمير، فإن هذه المحاسبة إن كانت صادقة تحمل على التوبة من الفجور، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان التقطيع والتحريق بالنار .

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها :

١ ـ الحرص على التزام الصدق، وتحريه فى كل شأن من شؤون الحياة فإنه يكون

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) انظر : الصمت لابن أبى الدنيا، ص ٢٤٧.

طريقًا للظفر بالصدِّيقية، والنجاة فى الدنيا والآخرة، ويساعد على ذلك : ما سبق أن ذكرناه فى هذا الشأن آنفًا .

٢ ـ التوسع فى أعمال البرِّ، والمعروف، فإنها طريق إلى الجنة، ومن زُحزحَ عن النار، وأُدخل الجنة فقد فاز، ويساعد على ذلك : ما ذُكِر آنفًا .

٣ ـ البعد عن الكذب بكل أشكاله وصوره، ويساعد على الابتعاد عنه بكل الأساليب والوسائل المذكورة فيما مضى .

٤ ـ اجتناب الفجور صغيره، وكبيره، ظاهره، وباطنه، طمعًا فى النجاة من النار، والظفر بالجنة ورؤيته سبحانه، وقد تقدمت كل السبل التى تساعد على اجتناب الفجور.

٥ ـ زيادة الحبِّ للنبى ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصاراً، حيث ساق فى هذا الحديث : كلمات موجزات، استغرقت فى شرحها صفحات، وصفحات .

الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس ﷺ قال : كنت خَلف النبى ﷺ يومًا فقال : « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام، وجفَّت الصحف » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ١/ ٢٩٣ رقم ٢٦٦٩، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب: حديث حنظلة، ص ٥٧٢، رقم ٢٥١٦ بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، وأحمد فى : المسند ١/ ٣٠٣ رقم ٢٧٦٣ بلفظ : « كنت رِدف النبى ﷺ فقال لى : يا غلام ، إنى مُحدِّثك حديثًا، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد رُفِعت الأقلام، وجفَّت الكتب، فلو جاءت الأمة ينفعوك بشىء لم يكتبه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لك، لما استطاعت، ولو أرادت أن تضرَّك بشىء لم يكتبه الله لك، ما استطاعت »، ١/ ٣٠٧ رقم ٢٨٠٣ بلفظ: « كنتُ رديف رسول الله ﷺ فقال: يا غلام ـ أو يا غليِّمُ ـ ألا أعلمك كلمات يفعك الله بهنَّ ؟ فقلتُ : بلى، فقال : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إليه فى الرخاء، يعرفك فى الشدَّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفَّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا، أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا» .

المعنى الإجمالى للحديث :

مما لا شك فيه أن الأمن أو الحفظ مطلب أساسى لكل إنسان، لا سيما الصبية أو الغلمان .

ومما لا شك فيه أيضًا : أن الله عزَّ وجلَّ هو وحده المانح كل أمن أو حفظ .

ومما لا شك فيه أيضًا : أن الظفر بتمام الأمن، وكمال الحفظ، لا يمنحه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا مَن كان صادق العبودية، وثيق الصلة به سبحانه .

ومما لا شك فيه أيضًا : أن على العبد التحلى بالصبر، إذ الصبر يؤدى إلى النصر، وعليه ملازمة الدعاء والضراعة، إذ بالدعاء يفرج الله الكرب، وعليه بالأمل، وطرح اليأس والقنوط، فإن ذلك يثمر اليسر بعد العسر، والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن هذه الحقائق .

إذ يحكى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه كان راكبًا ذات يوم خلف النبى ﷺ على دابته، ولاهتمامه ﷺ بإعداد أبناء الأمة لا سيما الصغار والناشئة منهم توجَّه بالخطاب إلى ابن عباس بأهم مطلب للإنسان فى الحياة، ألا وهو الأمن، فقال : يا غلام، أو يا غليم، إنى أعلمك كلمات، وعليك أن تصغى عليها، وأن تحفظها، وتعمل بما فيها، هذه الكلمات هى : إذا أردت الظفر بالحفظ والأمن ، فعليك بحفظ دين الله والالتزام بشريعته، مع اليقين أن القلم قد جرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، فلا تسأل أحدًا إلا الله، ولا تستعن بأحد إلا الله، ولا ترجو إلا الله، ولا تخف إلا من الله، ولتحرص على تنفيذ ذلك أيام الرخاء حتى يكون الله لك فى الشدة، ولتعلِّم نفسك الصبر، لكنه الصبر الإيجابى الذى يكون معه الإقدام، لا الإحجام، إذ الصبر كله ورحمة، حسبه أن معه النصر، ولتعلِّم نفسك كذلك : الدعاء والضراعة، إذ بالدعاء يكون تفريج الكرب، ولتوقن بالأمل بعد طرح اليأس والقنوط، إذ هذا يثمر التيسير بعد التعسير والسعة بعد الضيق .

ولكى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح فإننا سنعرض له من خلال هذه الجوانب :

الجانب الأول : معنى حفظ العبد لله، ومحاوره، وصور كل محور، وصور حفظ الله للعبد .

الجانب الثانى : أمارات حفظ العبد لله كما جاء بها الحديث .

الجانب الثالث : معنى الصبر، ومراتبه، وثمراته، وأهميته، وسبب اقتران النصر به فى الحديث، وسبيل التحلى به .

الجانب الرابع : معنى تفريج الكرب، وثمراته، وأهميته، وطريق الظفر به .

الجانب الخامس : معنى تيسير العسير، وثمراته، وفوائده، وطريق الظفر به .

الجانب السادس : سرّ عناية الإسلام بالشباب ، ومنهج النهوض بهذا الشباب .

الجانب السابع : بعض النصوص الأخرى الواردة فى معنى الحديث .

وذلك على النحو التالى :

الجانب الأول : معنى حفظ العبد لله، ومحاوره، وصور كل محور، وصور حفظ الله للعبد :

حفظ العبد لله يُراد به حفظ دينه، وشريعته، ولا يتم ذلك إلا من خلال محاور ثلاثة :

المحور الأول : موالاة الله المتمثلة فى هذه الصور :

١ ـ معرفته سبحانه معرفة تثمر اليقين بوحدانيته سبحانه، واتصافه بالكمالات، وتنزيهه عن كل نقص، وأن كل شىء قد قُضى أزلاً، وإليه يُرجع الأمر كله، فلا يُسأل إلا الله، ولا يُستعان إلا بالله، والخلق كلهم مهما كانت قوتهم، وكان بأسهم وسلطانهم، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، فضلاً عن أن يملكوا ذلك لغيرهم، وطريق ذلك : التأمل فى الكون، وفى النفس، ثم معايشة كتاب الله، وسنة نبيِّه ﷺ، فإن ذلك يثمر معرفة الله على هذا النحو الذى ذكرنا آنفًا.

٢ ـ محبته سبحانه محبةً تثمر الإخلاص مع التجرد عن كل صور الشرك الظاهرة والخفيّة، وطريق ذلك رؤية النعم الربانية تغمرهم من أدنى إلى أعلى، يعلم منها العبد ما يعلم، ويجهل منها ما يجهل، على حدِّ قوله ـ سبحانه : ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠]، ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [النحل : ١٨]، إذ القلوب جبلت على حُب من أحسن إليها .

٣ ـ التزول على حكم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى كل ما نأتى، وما ندع، مع الثقة فى هذا الحكم، والرضا به، والتسليم ظاهرًا، وباطنًا، لقوله ـ سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] .

وطريق ذلك اليقين : أن حكم الله يقوم على حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، التى هى مقومات الحياة .

٤ ـ كثرة الثناء على الله ـ سبحانه ـ بما هو أهله، من تلاوة آياته، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، ومحاسبة النفس، والتوبة، والاستغفار، والتجرد من الحول، والقوة، إلا حول الله وقوته، فإن هذا الثناء إقرار من العبد بعظيم الثقة بالله أنه لا يصنع بعبده إلا ما فيه نفعه ومصلحته .

٥ ـ الدعوة إلى موالاة الله على النحو الذى ذكر آنفًا، مستخدمين فى ذلك كل الأساليب، والوسائل شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف .

٦ ـ الوقوف فى وجه كل من يعتدون على حق الله فى الموالاة بكل ممكن من أساليب ووسائل، كى يبقى أصل الولاء، وكماله لله ـ عزَّ وجلَّ .

المحور الثاني : موالاة الرسول ﷺ المتمثلة في هذه الصور :

١ ـ معرفته ﷺ عن قُرب : بدراسة سنته ﷺ وسيرته، لندرك كمال خَلقه، وخُلُقه ﷺ .

٢ ـ محبته ﷺ محبةً تفوق محبة كل بشرٍ، لقوله ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده »[(١)] ، وفى رواية : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين »[(٢)] .

٣ ـ النزول على حكمه ﷺ فى كل ما نأتى، وما ندع، مع الثقة فى صدقه ﷺ وسلامة حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى والتسليم بهذا الحكم ظاهرًا وباطنًا، لقوله سبحانه : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٦٥) ﴾ [النساء] .

٤ ـ شكره ﷺ على المعروف الذى أسداه للبشرية عامة، ولنا نحن المسلمين خاصة، وذلك بسؤالنا ربنا أن يمنحه ما وعده إياه من المقام المحمود، على النحو الذى علمنا إياه من الصلاة والسلام عليه ما وسعنا ذلك، إذ يقول ﷺ : « إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الإيمان : باب: من الإيمان ان يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه، ص ٥، ٦ رقم ١٣ من حديث قتادة، عن أنس مرفوعًا به .

(٢) هذه الرواية أخرجها البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص ٥ رقم ١٤ من حديث عبد العزيز بن صهيب، وقتادة كلاهما عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا به .

عشرا، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلةٌ فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمَنْ سأل الله لى الوسيلة حلَّت له الشفاعة » (١) .

وإذ يقول : « مَنْ قال حين يسمع النداء : اللهمَّ رب هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته، حلَّت له شفاعتى يوم القيامة » (٢) .

٥ ـ الدعوة إلى موالاته ﷺ بكل الأساليب والوسائل التى لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف .

٦ ـ الوقوف بكل حزم وقوة فى وجه كل مَنْ يعمل على صدِّ الناس عن موالاته ﷺ، ودعوتهم إلى موالاة غيره .

المحور الثالث : موالاة المؤمنين الصالحين المتمثلة فى هذه الصور :

١ ـ معرفة حقوقهم علينا ، وواجبنا نحوهم، كى نتمكن من من مراعاة هذه الحقوق والقيام بواجبنا نحوهم .

٢ ـ محبتهم محبة صادقة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومحبة الخير لهم كما نحن لأنفسنا، إذ يقول ﷺ : « ثلاثٌ م كُنَّ فيه، وجد بهنَّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكوه أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذَف فى النار » (٣) . . .

وإذ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الصلاة : باب: استحباب: القول، مثل قول المؤذِّن لمن سمعه، ثم يصلى على النبى ﷺ، ثم يسأل الله له الوسيلة، ص ١٦٣، رقم ١١، وأبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب: ما يقول إذا سمع المؤذن، ص ٨٨، رقم ٥٢٣، والترمذى فى: السنن: كتاب المناقب : باب : سلوا الله لى الوسيلة، ص ٨٢٤ رقم ٣٦١٤، والنسائى فى: السنن (المجتبى) : كتاب الصلاة: باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد الأذان، ص ٩٣ رقم ٦٧٩ كلهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا به .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأذان : باب: الدعاء عند النداء، ص ١٠٢ رقم ٦١٤ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا به .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: حلاوة الإيمان، ص ٦، رقم ١٦، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد بهنَّ حلاوة الإيمان، ص ٤٠ رقم ٦٧، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا به .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص ٥، رقم ١٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، ص ٤١ رقم ٧١ كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا به .

٣ ـ أداء حقوقهم كاملة غير منقوصة، وإن قصروا فى أداء واجبهم نحونا، إذ الكل مطلوب منه أن يؤدى الذى عليه، ويسأل ربه الذى له على غيره .

٤ ـ دعوة الآخرين إلى موالاتهم على النحو الذى ذُكر آنفًا، مستخدمين كل الأساليب والوسائل الممكنة فى تحقيق ذلك شريطة عدم التعارض مع مبادئ الشرع الحنيف .

٥ ـ الوقوف فى وجه كل مَن يعمل على تقويض موالاة المؤمنين ، كى تقع بينهم العداوة، والبغضاء، ويكون الشقاق، والفراق، وتمكن الأعداء والعيش فى العذاب العظيم.

إن المسلم إذا حقق فى نفسه هذه المحاور الثلاثة يكون قد حفظ دين الله وشرعه، وبذلك يستحق أن يحفظه الله فيعطيه العون، والتأييد والنصر والغلبة على الأعداء، وصدق الله الذى يقول : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢]، ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)** ﴾ [المائدة] .

والذى يقول فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما زال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطشُ بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»(١) .

ولحفظ الله لعبده صور ، منها :

١ ـ حفظه فى نفسه ، وولده، وأهله، وذويه، وماله، وأرضه، ووطنه، بواسطة جند الله، قال تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال ﷺ : « كانت امرأة فى بيت، فخرجت فى سريَّة من المسلمين، وتركت ثنتى عشرة عنزًا، وصيصتها كانت تنسج بها، قال : فقدت عنزًا لها، وصيصتها، فقالت : يا رب إنك قد ضمنت لمن خرج فى سبيلك أن تحفظ عليه، وإنى قد فقدتُ عنزًا من

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب : التواضع، ص ١١٢٧ رقم ٦٥٠٢ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

غنمى، وصيصتى، وإنى أنشدك عنزةً لى، وصيصتى »، قال راوى الحديث : وجعل النبى ﷺ يذكر شدة مناشدتها ربَّها ـ تبارك وتعالى ـ قال رسول الله ﷺ : « فأصبحت عنزها، ومثلها »[1] .

٢ ـ حفظه فى دينه، من الشبهات، والشهوات، بحيث يُحييه مسلمًا، ويتوفاه إليه مسلمًا، قال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف] .

٣ ـ توفيقه للحذر والحيطة، والهداية إلى كل ما يحفظه فى دينه ودنياه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل] ، وقال سبحانه لموسى وهارون ـ عليهما السلام: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه].

ومن عجب أن هذا الحفظ يكون سريعًا، وشاملاً لقوله ﷺ : « احفظ الله تجده تجاهك » .

الجانب الثانى : أمارات حفظ العبد لله، كما جاء بها الحديث :

وهناك أمارات لحفظ العبد لله، نذكر منها :

١ ـ اليقين بالقدر الكونى، وضرورة مدافعته بالقدر الشرعى المتمثل فى :

أ ـ سؤال الله وحده، قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٣٢]، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ب ـ الاستعانة بالله وحده، قال ﷺ : « احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز »[2] .

جـ ـ الرجاء فى الله وحده، والخوف منه وحده، فهو المعطى، النافع، المانع، الضار، إذ يقول سبحانه : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند رقم ١٩٧٤٣، ورجاله ثقات، وهو صحيح .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب القدر : باب: فى الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله ٤/٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : فى القدر ١/٣١ رقم ٧٩، والإمام أحمد فى: المسند ٢/٣٦٦، ٣٧٠ كلهم من حديث أبى هريرة بمثله، أو بنحوه، واللفظ لمسلم .

اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الانعام] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس] .

د ـ الرضا بما اختاره الله مع التحلى بالصبر، فإن ذلك الصبر يعود لا محالة إلى النصر، قال ﷺ : « واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر » .

هـ ـ اليقين أن الفرج قرين الكرب، وأن مع العسر يسرًا ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح] ، وقال تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الانبياء] .

٢ ـ معرفة الله ، وموالاته فى الرخاء أكثر منه فى الشدَّة، طمعًا فى عون الله وتأييده على الدوام، لقوله ﷺ : « تعرف على الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

الجانب الثالث : معنى الصبر، ومراتبه، وثمراته، وأهميته، وسبب اقتران النصر به فى الحديث، وسبيل التحلى به .

الصبر لغة : يأتى الصبر لغة على معان، منها :

١ ـ الشدة، والقوة، تقول : لقيتُ الأمور بأصبارها تعنى : بشدتها، وقوتها .

٢ ـ الجمع والضم، تقول : صبر على الأمر، تعنى : جمع نفسه، وضمها عن الهلع .

٣ ـ الجنس، تقول : صبرتُ الدابة تعنى : حبستُها بلا علف، وصبر فلان نفسه عند المصيبة، تعنى : حبس نفسه عن الجزع [١] .

ولا تعارض بين هذه المعانى، إذ هو : شدة أو قوة تحمل على الضمِّ والجمع، والجنس .

---

[١] انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين، ص ٥٨٧ بتصرف كثير .

الصبر شرعًا :

للصبر شرعًا تعريفات عدَّة، نذكر منها :

١ ـ وقف النفس على ما يحبه الله، ويرضاه .

٢ ـ الثبات على أحكام الكتاب، والسنة [١] .

٣ ـ حبس النفس على ما تكره ابتغاء وجه الله .

ولا تعارض بين هذه التعريفات إذ الصبر : عزيمة صادقة، وهمة عالية، وإرادة قوية، تحمل على جمع الفكر، وضم النفس، وحبسها على وفق مراد الشرع .

مراتب الصبر هى :

١ ـ الصبر عن المعصية .

٢ ـ الصبر على الطاعة .

٣ ـ الصبر على قدر الله، وقضائه دون تبديل أو تغيير [٢] .

وأعلى هذه المراتب ، وأجلها : إنما هى المرتبة الثالثة، نظرًا لأن المرء قد ترك المعصية زمنًا مَّا، وكذلك قد يفعل الطاعة زمنًا مَّا، ولكن الاستمرار على ذلك إلى آخر الزمان، مع الرضا بقضاء الله، وقدره، والتسليم التام بلا تغيُّر ولا تلوُّن، إنما هو دليل على صدق العزيمة، وعلو الهمة، وقوة الإرادة، والطمع فى رضا الله ومثوبته .

وكذلك الصبر على الطاعة أكمل من المرتبة الأولى ، وهو الصبر عن المعصية، نظرًا لأن الجهد المبذول فى الصبر عن المعصية هو مجرد الترك، وهو وإن كان شاقا إلا أن الأشق منه هو بذل الجهد فى الطاعة .

ثمرات الصبر، وأهميته :

للصبر ثمرات، تتلخص إجمالاً فى: محبة الله للصابرين، والوقوف معهم فى كل الأحوال، لاسيما ساعات الشدائد والمحن، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة] .

(١، ٢) انظر : الحديث السابع والثلاثين من هذا الجزء من التوجيهات .

أما تفصيلاً فتتلخص فى :

١ ـ ضبط الأعصاب، بحيث لا يستجيب الصابرون إلى المثيرات التى يثيرها الأعداء، محاولين بها جر المسلمين إلى معارك جانبية تبدد طاقتهم، وتصرفهم عن هدفهم الأسمى، وغايتهم الكبرى، وقد تكون المعركة معهم أصلية، ولكن الواقع يأباها، والظروف المحيطة لا تسمح بها، قال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)** ﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)** ﴾

[آل عمران]

٢ ـ مغفرة الذنوب، والهداية إلى الرشاد الأمر الذى يفتح باب: الأمل فى نصر الله، والرجاء فى رحمته، قال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾

[البقرة]

٣ ـ عدم التأثير بمكائد الأعداء، ومؤامراتهم، قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)** ﴾ [آل عمران] .

٤ ـ الظفر بالعون الإلهى، والمدد الربانى، قال تعالى : ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)** ﴾

[آل عمران]

٥ ـ التمكين فى الأرض، والإمامة فى الدين ، قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)** ﴾ [السجدة] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

٦ ـ حمل غير المسلمين على عدم الاستمرار فى كفرهم وبغيهم، إذ انهيار المسلمين، وعدم صبرهم لاسيما فى أوقات الشدائد والمحن، يلقى فى روع هؤلاء : أن

المسلمين على الباطل، وإلا لما انهاروا بهذه السرعة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

٧ ـ الظفر بعقبى الدار، من الجنة، ورؤية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد] ، وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾ [الفرقان] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) ﴾ [الإنسان] .

٨ ـ التمكن من إنجاز الأعمال جميعًا بلا يأس، ولا قنوط، تطبيقًا للسنة الكونية : أنه إنجاز أى عمل يحتاج إلى طاقات، وإمكانات ووقت، ولا يتم شيء من ذلك إلا بالصبر ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة] .

وإذا كانت هذه ثمرات الصبر، فهو من الأهمية بمكان، ولذا أمر به أصحاب الدعوات بدءًا بالرسل والنبيين، وانتهاءًا بأتباعهم إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

سبب اقتران النصر بالصبر فى الحديث :

أراد النبى ﷺ بجعل النصر قرين الصبر : حمل المؤمن على الأخذ بالأسباب: من حفظ دين الله، والاستمساك به، وإذا تأخر ما رجاه من ربه من الحفظ، والتأييد، فلا يستعجل، بل يصبر ويحتسب، رضًا بقضاء الله وقدره، وإنه لا يدرى أين المصلحة، إذ ربما يكون مراد الله بتأخير النصر، حمل المسلم على العمل، والمثابرة شيئًا شيئًا حتى يبلغ الكتاب أجله، وحينئذٍ يكون النصر والتأييد .

سبيل التحلى بالصبر :

إن من بين السبل التى تساعد المسلم على التحلى بالصبر ما يلى :

١ ـ أن يستحضر أنه مأمور به من قِبَل الله ورسوله على النحو الذى ذكر آنفًا، وليس أمام المسلم الصادق مع حكم الله ورسوله سوى الامتثال، إذ يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ [النور] .

٢ ـ أن يتذكر أن من بين أسماء الله الحسنى : « الصبور » يعنى : الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام، إذ جاء فى الحديث قوله ﷺ : « ليس أحد ـ أو ليس شىء ـ أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدَّعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم، ويرزقهم »[(١)] ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه على المسلم أن يكون له نصيب من هذا الاسم، ونصيبه منه : إنما هو التحلى بالصبر، والتحمل .

٣ ـ أن يعيش طويلاً مع النبيين وأتباعهم من المجاهدين، والصديقين، والشهداء والصالحين، من خلال القصص القرآنى، وكتب التاريخ ليرى أن الصبر كان دأبهم وديدنهم، وأنهم نالوا بسبب أعلى الدرجات، وأرفع المنازل، وكان لهم النصر، والغلبة على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى حاكيًا موقف الأنبياء من المكذبين من قومهم، إذ قالوا لهم : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم : ١٢]، وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾ [البقرة]، وقال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ [آل عمران] .

٤ ـ مجاهدة النفس، وحملها بأكثر من سبيل على التحلى بالصبر، والاستمرار، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة، ويُراد بها وجه الله تعالى أثمرت منَّة الله على العبد بالصبر، لقوله ﷺ فى الحديث : « ومَن يصبر يُصبِّره الله . . . الحديث »[(٢)] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

ولقوله أيضًا : « فمن صبر، فله الصبر »[١] .

٥ ـ صحبة المعروفين بالصبر، والتحمل، فإن من شأن هذه الصحبة، تقوية العزائم، والسموّ بالإرادات لتصبح فى مستوى هؤلاء، أو تقارب .

٦ ـ استحضار أن غير المسلمين يصبرون مع أنهم على الباطل، فكيف بنا ـ نحن المسلمين ؟ ونحن على الحق ؟ إن هذا أدعى أن نكون أكثر منهم صبرًا، وأشد تحملاً، وقوة وعزيمة .

٧ ـ تعهد المربين للمرء، وذلك بتكليفه بمهام بسيطة، ثم مركبة وهكذا، حتى يصلب العود، ويقوى الساعد، ويشتد، وتنمو ملكة الصبر فى النفس على نحو ما صنع الأنبياء والمرسلون وأتباعهم مع المدعوين فى كل البيئات، وفى سائر العصور .

٨ ـ تذكر ثمرات الصبر، وفوائده، فإن من شأن ذلك حمل النفس على التحلى بالصبر، والتحمل .

الجانب الرابع : معنى تفريج الكرب، وثمراته، وأهميته، وطريق الظفر به :

الكرب لغة : يأتى الكرب لغة على معانٍ ، منها :

١ ـ الدنو، والمقاربة، تقول : كربت الشمس للمغيب، دنتْ، وكَرَبَ يفعل كذا، وكذا، وكرُب أن يفعله : قارب أن يفعله .

٢ ـ ثَقَل الأمر، وشدته، تقول : كَرُبَ فلانًا الأمرُ، والغمُّ، والعبء : ثقل عليه، واشتد : فهو مكروب .

٣ ـ الحزن، والغم، تقول : أصابه الكرب : الحزن والغمّ[٢] .

ولا تعارض بين هذه المعانى ، إذ هو ثقل الأمر وشدته بصورة يتوقع معها قرب وقوع الحزن والغم، ودنوّه، بل وقوعه بالفعل .

الكرب اصطلاحًا :

الكرب اصطلاحًا : عرفه ابن منظور بقوله : « الكرب ـ على وزن الضرب مجزوم الراء ـ الحزن، والغم الذى يأخذ بالنفس »[٣] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) انظر : المعجم الوسيط : ٢/ ٧٨١ بتصرف .

(٣) انظر : لسان العرب ١/ ٧١١، ٧١٢ .

وعرفه الحافظ ابن حجر بقوله : « الكرب ـ بفتح الكاف ، وسكون الراء بعدها موحدة ـ هو ما يدهم المرء مما يأخذ بنفسه فيغمُّه ويحزنه » (١) .

وعرفه أبو هلال العسكرى بقوله: « والكرب تكاثف الغمِّ مع ضيق الصدر » (٢) .

ولعل ملتقى هذه التعريفات أن الكرب : شدة تنزل بالمرء على غير توقع منه فتصيبه بغم عظيم، وحزن كبير يضيق معها الصدر، وتنقبض النفس .

جـ ـ تفريج الكرب : هو تصدع جدار المحنة، وزوال الغمة بصورة تنشرح لها الصدور، وتستريح النفوس، وتمضى المسيرة إلى نهايتها .

ثمرات تفريج الكرب وأهميته :

تتلخص ثمرات تفريج الكروب فيما يلى :

١ ـ انشراح الصدور، وراحة النفوس ، الأمر الذى يؤدى إلى الجد والنشاط والمضى فى الطريق إلى نهايتها .

٢ ـ تعميق الحب لله، الذى فرَّج الكرب، وأزال الهم، والغم، وكذلك تعميق الحب للرسول ﷺ الذى علمنا بالكلمة والسلوك الطريق لتفريج الكربات، ودفع الهموم، والغموم .

٣ ـ المواظبة على الطاعات التى كانت سببًا فى تفريج الكروب كى يدوم ذلك التفريج، ولا تعود الكروب مرة أخرى، من باب: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾

[إبراهيم : ٧]

٤ ـ السعى فى تفريج كروب الآخرين طمعًا فى تفريج كربة من كرب يوم القيامة، لقوله ﷺ فى الحديث : « ومَن فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرَّج الله عنه كربةً من كُربات يوم القيامة » (٣) .

وإذا كانت هذه ثمرات تفريج الكرب فإنه من الأهمية بمكان حتى عدَّه النبى ﷺ صورة من صور حفظ الله للعبد، ولكنها صورة عاجلة وسريعة .

---

(١) انظر : فتح البارى ١١/ ١٥٠ . (٢) الفروق اللغوية ، ص ٢٦٢ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب : لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، ص ٣٩٤ رقم ٢٤٤٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة ، ص ١١٢٩ رقم ٢٥٨٠ كلاهما من حديث سالم بن عبد الله، عن أبيه مرفوعًا .

طرق الظفر بتفريج الكرب :

هذا، وهناك طرق لتفريج الكرب، نذكر منها :

١ ـ اليقين فى الله، وأنه لا يعجزه تفريج الكرب فى أقل من طرفة عين ، قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)** ﴾ [يونس] .

٢ ـ الثناء على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما هو أهله ، فإن هذا الثناء، يعنى أن المرء لثقته بربه اشتغل بالثناء عليه ـ تبارك وتعالى ـ مفوِّضًا إليه أن يصنع به ما يشاء من تفريج الكرب، وغيره .

كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم، الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السموات، وربُّ الأرض، وربُّ العرش العظيم » (١) .

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات، تقولينهنَّ عند الكرب، أو فى الكرب : الله ربى لا أشرك به شيئًا » (٢) .

٣ ـ الدعاء ، فإن الدعاء هو العبادة ، قال تعالى: ﴿ **وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)** ﴾ [الأنبياء] ، وقال تعالى: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)** ﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)**﴾ [النمل].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان يرقى ويقول : « امسح البأس، ربَّ الناس، بيدك الشفاء لا يكشف الكرب إلا أنت » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات : باب : الدعاء عند الكرب ، ص ١١٠٣ رقم ٦٣٤٥، ٦٣٤٦، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء، ص ١١٨٤ رقم ٢٧٣٠، كلاهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الوتر : باب : فى الاستغفار، ص ٢٢٥، رقم ١٥٢٥، وقال عنه الشيخ ناصر الدين الألبانى ١/ ٢٨٤ : « صحيح » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٦/ ٥٠ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا به .

٤ ـ صناعة المعروف ابتغاء وجه الله من إنظار المعسر، والوضع عنه، ومن بر الوالدين، وحفظ الفروج، وإعطاء الأجير أجره، يقول النبي ﷺ: « مَنْ سرَّه أن ينجيه الله من كُرَب يوم القيامة، فلينفِّس عن معسرٍ أو يضع عنه »(١).

ويقول أيضًا : « من أراد أن تُستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرِّج عن معسر »(٢).

ويقول أيضًا : « بينما ثلاثة نفر مِمَّن كان قبلكم إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَقَ فيه، فقال واحد منهم : اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لى أجيرٌ عمل لى ، على فَرَقٍ من أرز، فذهب وتركه، وإنى عمدتُ إلى ذلك الفَرَق، فزرعته، فصار من أمره أنى اشتريتُ منه بقرًا، وإنه أتانى يطلب أجره، فقلتُ له: اعمد إلى تلك البقر، فسقها، فقال لى : إنما لى عندك فَرَقٌ من أرز، فقلتُ له : اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفَرَق، فساقها، فإن كنتَ تعلم أنى فعلتُ ذلك من خشيتك فَفرِّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة، فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنتُ آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى، فأبطأتُ عنهما ليلة، فجئتُ وقد رقدا، وأهلى وعيالى يتضاغون من الجوع، وكنتُ لا أسقيهم حتى يشرب أبواى، فكرهتُ أن أوقظهما، وكرهتُ أن أدعهما فيستكنَّا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنتَ تعلم أنى فعلتُ ذلك من خشيتك، ففرِّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء، فقال الآخر : اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لى ابنة عمٍّ من أحب الناس إلىَّ ، وأنى راودتها عن نفسها، فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرتُ فآتيتها بها، فدفعتها إليها، فأمكنتنى من نفسها، فلما قعدتُ بين رجليها، قالت : اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمتُ وتركتُ المائة دينار، فإن كنتَ تعلم أنى فعلتُ ذلك من خشيتك، ففرِّج عنَّا، ففرَّج الله عنهم، فخرجوا »(٣).

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب المساقاة : باب: فضل إنظار المعسر ص ٦٨٤ رقم ١٥٦٣ من حديث أبى قتادة مرفوعًا به .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/٢٣، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ٤/١٣٣، وعقب عليه بقوله : « رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجال أحمد ثقات » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب أحاديث الأنبياء : باب: حديث الغار، ص ٥٨٤ رقم ٣٤٦٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة ص ١١٨٨ رقم ٦٩٤٩ كلاهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا .

الجانب الخامس : ماهية تيسير العسير، وثمراته، وفوائده، وطريق الظفر به :

ماهية تيسير العسير :

تيسير العسير : مركب إضافى مؤلف من : (تيسير) و(العسير)، ولابد من معرفة كل منهما على حدة، ثم معرفة المعنى بعد التركيب على النحو التالى :

أ ـ ماهية التيسير :

التيسير لغة : يأتى على معانٍ، نذكر منها :

١ ـ التسهيل، تقول يسر الأمر تيسيرًا، تعنى : سهل تسهيلاً .

٢ ـ الاستغناء، تقول : يسر فلان يسارًا، ويسرى : تعنى : استغنى .

٣ ـ التهيئة، والإعداد، تقول يسَّر له الأمر تعنى : هيَّأه، وأعدَّه [١] .

ولا تعارض بين هذه المعانى، إذ هو : تهيئة الأمر، وإعداده، وتسهيله بصورة يكون معها الغنى، والسَّعة، والرخاء .

التيسير اصطلاحًا :

هو انفراج الأمر، وتسهيله بصورة يكون معها السعة والرخاء [٢] .

ب ـ ماهية التعسير :

لغة : التعسير لغة، يأتى على معانٍ ، نذكر منها :

١ ـ الصعوبة والشدة، تقول تعسَّر الأمر، واستعسر إذا اشتد، والتوى .

٢ ـ التضييق، تقول : عسَّر عليه أى : ضيَّق، وتعسير الأمر، تضييقه [٣] .

ولا تعارض بين المعنيين، إذ هو التضييق بصورة تكون معها مشقة وصعوبة، وشدة.

اصطلاحًا : التضييق على المرء ـ لسبب أو لآخر ـ بما يعرّضه للشدة والمشقة والحرج.

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ١٠٦٤، ١٠٦٥ بتصرف كثير .

(٢) انظر : جامع البيان للطبرى ٣٠/ ١٤٣ سورة الليل بتصرف كثير .

(٣) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٠ بتصرف كثير .

جـ ـ ماهية تيسير التعسير :

تيسير العسير هو : السهولة بعد الشدة، والانفراج بعد الضِّيق .

ثمرات تيسير العسير وفوائده :

لتيسير العسير ثمرات وفوائد، نذكر منها :

١ ـ استئناف المسير بعد القعود، والمواصلة بعد الانقطاع .

٢ ـ زيادة المعرفة بالله وما تؤدى إليه من تعميق الولاء والحب له سبحانه وتعالى.

٣ ـ معرفة قيمة الأخذ بالأسباب: فى إنجاز الأمور، وقضاء الحوائج، وإعانة الله للعبد بما يجعل العسر يسرًا، والشدة رخاءً .

طُرق تيسير العسير :

لتيسير العسير طرق، نذكر منها :

١ ـ بذل الأسباب: التى بمقدور الإنسان القيام بها، فإذا أغلق باب: أمام المرء لزمه أن يفتح باب:اً آخر، لا أن يضعف، ويستكين رافعًا الراية البيضاء، إذ الأقدار تُرفع بالأقدار، هذا رسول الله ﷺ يرى مكة قد وصدت أبوابها فى وجهه، فيتجه إلى الطائف فيجد أنها ليست بأحسن حالاً من مكة، فيتجه إلى الناس فى موسم الحج، ويعرض نفسه عليهم فى رحالهم ومنازلهم، قائلاً : « هل من رجل يحملنى إلى قومه لأبلِّغ رسالة ربِّى، فإن قريشًا منعونى أن أبلغ رسالة ربِّى » (١) .

وما زال كذلك حتى رزقه الله نفرًا من يثرب آمنوا به، ووعدوه أن يقوموا بنشر الدعوة فى بلدهم، وأرسل معهم مَن يُعلّمهم، ويؤمهم فى الصلاة، ثم كان عقدُ البيعة، والهجرة، والنصرة، وقامت الدولة، وزالت الشدة والعسر، وحل محلَّ ذلك الرخاء، واليسر .

٢ ـ سعى الآخرين إلى التيسير عن المعسرين طمعًا فى الأجر الذى وعدهم ربهم به على لسان نبيهم محمد ﷺ، لاسيما أصحاب الهمم العالية، والنفوس الكبيرة، إذ

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣/٣٢٢، والحاكم فى : المستدرك ٢/٦٢٤، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ٦/٤٦ وعقَّب عليه بقوله : « رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح » .

جاء الحث على السعى فى التيسير على من ابتُلوا بالعسر، فى جملة من الأحاديث، منها قوله ﷺ: « من أنظر معسرًا، أو وضع عنه، أظلَّه الله فى ظله » (١).

وقال ﷺ: « من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فليُنفِّس عن معسر أو يضع عنه » (٢).

وقوله ﷺ: « من نفَّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن سَتَرَ مُسلمًا ستره الله فى الدنيا وفى الآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . . . » الحديث (٣).

وقوله ﷺ: « حوسب رجل ممن كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شىء ، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال : قال الله ـ تعالى : نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه » (٤).

٣ ـ الدعاء الدائم أن ينجز ما وعد به سبحانه من جعله بعد عسر يسرا، مع اليقين بالإجابة، قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)** ﴾ [غافر]، وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(١٨٦)** ﴾ [البقرة].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد : باب: حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر ، ص ١٢٩٩ رقم ٧٤/٦/٣٠٠٦/٧٥١٢ من حديث أبى اليسر مرفوعًا به، والترمذى فى : السُّنن : كتاب البيوع: باب: ما جاء فى إنظار المعسر والرفق به، ص ٣١٧ رقم ١٣٠٦ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا بلفظ : «مَنْ أنظر مُعسرًا، أو وضع له، أظلَّه الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، وعقب عليه بقوله : « حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه »، والدارمى فى : السُّنن : كتاب البيوع : باب: فيمن أنظر معسراً ٣/١٦٨٦ رقم ٢٦٣٠ من حديث أبى اليسر ﷺ مرفوعًا، بلفظ مسلم .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب المساقاة : باب: فضل إنظار المعسر والتجاوز فى الاقتضاء من الموسر والمعسر، ص ٦٨٤ رقم ١٥٦٣٣٢/ ٤٠٠٠ من حديث أبى اليسر ﷺ مرفوعًا به .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ص ١١٧٣، رقم ٣٨/٢٦٩٩/٦٨٥٣، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب: فى المعونة للمسلم، ص ٦٩٧ رقم ٤٩٤٦، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب: ما جاء فى الستر على المسلمين، ص ٤٤٩ رقم ١٩٣٠ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب البيوع : باب: مَن أنظر معسرًا، ص ٢٠٧٨ رقم ٣٣٣، من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، قال : « كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه »، ومسلم فى: الصحيح: كتاب المساقاة : باب: فضل إنظار المعسر، والتجاوز فى الاقتضاء من الموسر، والمعسر، ص ٦٨٤ رقم ٣٠/١٥٦١/٣٩٩٧ من حديث ابن مسعود ﷺ ، وهذا لفظه .

٤ ـ التجوُّل فى سير السلف، وكيف كانت نظرتهم للشدائد والعسر، فإن هذا من شأنه تقوية العزائم، والمضىّ فى الطريق إلى نهايتها، مع الفأل الحسن .

هذا عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى أبى عبيدة ـ وهو محصور فى بلاد فارس ـ قائلاً : « مهما تنزل بامرئ شديدة ، يجعل الله بعدها فرجًا ، فإنه لن يغلب عُسرٌ يُسرين » (١) .

وهذا أبو الفرج بن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) يقول : « العُسر بين اليُسرين، إما فرجٌ عاجل فى الدنيا، وإما ثوابٌ آجل فى الآخرة » (٢) .

الجانب السادس : سر عناية الإسلام بالشباب، ومنهج النهوض بهذا الشباب :

إن سر عناية الإسلام بالشباب: : أن الشباب: هم أمل المستقبل، وهم أقدر من غيرهم على تحمل المسؤولية فكريا ، وبدنيا ، فضلاً عن سلامة صدورهم من الأحقاد ، والضغائن، ونظافة عقولهم من الأفكار والمبادئ الهدامة .

ومنهج نهوض الإسلام بالشباب يتمثل فى :

١ ـ احتضان القدوات، والكبار لهم،ومعايشتهم على الدوام وتوجيههم ومتابعتهم، من خلال هذا الاحتضان وهذه المعايشة، على نحو ما صنعه النبى ﷺ مع ابن عباس حين أردفه خلفه، وساق إليه هذه التوجيهات الثمينة التى تضمنها هذا الحديث، وعلى نحو ما صنعه مع معاذ بن جبل (٣) ، وأبىٍّ بن كعب (٤) ، وأنس بن مالك، وغيرهم، وغيرهم .

٢ ـ وضعهم فى المسؤولية لإكسابهم خبرات ومهارات من ناحية ولملء الفراغ عليهم من ناحية أخرى، فلا يستغل هذا الفراغ من قِبَل شياطين الإنس، والجنّ .

فهذا على بن أبى طالب يكلِّفه النبى ﷺ أن ينام فى فراشه ليلة الهجرة ليرد الودائع إلى أصحابها، وليموِّه على الأعداء، فيفرح بهذا التكليف، ويقوم به على أحسن وجه .

(١، ٢) انظر : لسان العرب، لابن منظور ٥/٢٩٣٨، ٢٩٣٩ .

(٣) مضى هذا فى حديث حق الله على العباد .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب مناقب الأنصار : باب: مناقب أبى بن كعب ﷺ ص ٦٣٩ رقم ٣٨٠٩ من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال النبى ﷺ لأبىٍّ : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة : ١]، قال : وسمَّانى ؟ قال : نعم، قال : فبكى » .

وهذا حبيب بن زيد الأنصارى، يكلفه النبىﷺ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره بنقل رسالة إلى مسيلمة الكذاب زجره فيها عن غيِّه، حين ادَّعى النبوَّة، واستشرى خطره فى كل أنحاء الجزيرة لاسيما فى بنى حنيفة، فيمضى لتنفيذ أمر رسول اللهﷺ غير مكترث بالعواقب .

وهذا أسامة بن زيد يضعه النبىﷺ أميرًا على الجيش الذى وجَّههُ إلى الروم قبل وفاتهﷺ بقليل ، ولم يتجاوز أسامة الثامنة عشرة من عمره ، فينجح فى إمارته أيما نجاح . . . وهلم جرا .

٣ ـ الحرص على استخراج الطاقات، والمواهب المذخورة لديهم بكل الأساليب والوسائل الممكنة التى لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، ثم توظيف هذه الطاقات والمواهب، بما ينميها، ويعود عليهم، وعلى الأمة بل والبشرية بالنافع المفيد .

كان النبىﷺ يسابق أصحابه، ويفتح لهم أبواب التنافس فى الخير، فيقول لهم ليلة إرسال الله الريح والملائكة على الأحزاب مع شدة البرد، والظلام : « مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة »[١] ، ومرة ثانية يقول لهم : « ليت رجلاً من أصحابى صالحًا يحرسنى الليلة »[٢] .

٤ ـ النظر إليهم بتقدير واحترام، واستيعاب كل ما يقع منهم، فإن كان صوابًا حوفظ عليه مع العمل على تنميته، والرقى به إلى أقصى درجات الكمال، وإن كان غير صواب عدل به إلى الصواب مع الإقناع والرأفة والرحمة، ولا أدل على ذلك من هذا الشاب الذى جاء النبىﷺ فقال : يا رسول الله : ائذن لى بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا : مَهْ، مَهْ، فقال : « ادنه » ، فدنا منه قريبًا، قال : فجلس، قال : «أتحبه لأمك ؟ »، قال : لا، والله جعلنى الله فداءك، قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال : « أفتحبُّه لابنتك ؟ »، قال : لا، والله يا رسول الله، جعلنى الله فداءك، قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم »، قال : « أفتحبُّه لأختك ؟ » قال : لا، والله جعلنى الله فداءك، قال : « ولا الناس يحبونه لأخواتهم »، قال : « أفتحبه

---

(١) أخرجه أحمد فى : المسند ٥/٣٩٢، تاريخ الملوك والأمم للطبرى ٢/٥٧٩، وعيون الأثر فى فنون المغازى، والشمائل والسير لابن سيد الناس ٢/ ٦٥ مختصراً، وابن إسحاق بسنده إلى محمد بن كعب القرظى قال : قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله أرأيتم رسول اللهﷺ وصحبتموه ؟ . . الحديث، انظر : الجامع فى السيرة النبوية لسميرة الزايد ٢/ ٧١٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب: الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، ص ٤٧٧ رقم ٢٨٨٥ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبىﷺ سهر، فلما قدم المدينة قال : « ليت رجلاً . . . الحديث » .

لعمتك ؟ »، قال: لا، والله جعلنى الله فداءك، قال: « ولا الناس يحبونه لعماتهم »، قال : « أفتحبه لخالتك ؟ »، قال : لا ، والله جعلنى الله فداءك ؟، قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم »، قال : فوضع يده عليه، وقال : « اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبَه، وحصِّن فرجه »، قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (١) .

وعن سعد بن معاذ ﷺ أنه قال : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نَلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك، فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوامٌ يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ، ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير، ثم بُنِيَ لرسول الله ﷺ عريشٌ فكان فيه (٢) .

الجانب السابع : بعض النصوص الأخرى الواردة فى معنى الحديث :

جاءت نصوص فى معنى الحديث، تقدم كثير منها :

قوله تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** (٥٦) ﴾ [المائدة]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ [النحل] .

وقوله ﷺ: « يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه، وما زال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمعه به، وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه . . . » (٣) .

ويزاد عليها : قوله ﷺ : « من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمَّة الله، فلا يطلبنكم الله فى ذمته بشىء ، فإن من يطلبه من ذمته بشىء يدركه، ثم يكبَّهُ على وجهه فى نار جهنم » (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧ من حديث أبى أمامة ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه ابن جرير الطبرى فى : تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٤٠، والبيهقى فى : دلائل النبوة ٣/ ٤٤، وابن سيد الناس فى : عيون الأثر ١/ ٢٥٢ .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب المساجد: باب: فضل صلاة العشاء، والصبح فى جماعة، ص ٢٦٥ رقم ٢٦١، ٢٦٢، وأحمد فى : المسند ٤/ ٢١٣ كلاهما من حديث جندب بن عبد الله ﷺ مرفوعًا به ، وبنحوه .

ما يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها :

١ ـ أن من أراد الحفظ التام الذى لا يشوبه خوف ولا فزع فليحفظ دين الله بأن يأتى كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة، ويدع كل ما لا يحبه الله، ولا يرضاه من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة .

٢ ـ أن من حفظ دين الله، وطلب الله فى أية لحظة، وعلى أيَّة حال وجد الله معه يُلبِّى طلبه بما فيه مصلحته، وسعادته فى الدنيا والآخرة جميعًا .

٣ ـ أن طلب قضاء الحاجات، والاستعانة الحقة، لا طريق لهما إلا الله، الذى بيده مقاليد السموات والأرض، والذى إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وإذا كانت استعانةٌ بالمخلوقين، والطلب منهم فإنما ذلك من قبيل الأخذ بالأسباب: العادية التى كُلفنا بها شرعًا .

٤ ـ أن على المرء أن يسير فى الحياة مرفوع الهامة، عزيزًا كريمًا، لا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله، إذ الأمة كلها لا تستطيع جلب نفع له لا يريده الله، كما لا تستطيع دفع ضرٍ أراده الله .

٥ ـ أن على العبد أن يكون واثقًا مطمئنًا أنه إذا تكاثرت الخطوب، وتعاظمت الكروب، وضاق الأمر، فإن الفرج واقع حينئذٍ لا محالة، إذ مضت سنته ـ سبحانه ـ أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، لابد من الصبر والتحمل حتى يأتى أمر الله، وعسى أن يكون قريبًا .

٦ ـ عنايته ﷺ بالشباب: ، وتعهده لهم بالتعليم والتوجيه والتربية ليقينه بأهميتهم، ودورهم الفاعل، والبناء فى الحياة .

الحديث الأربعون

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تُفتحُ أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبد لا يُشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب : النهى عن الشحناء والتهاجر، ص ١٣٨٧، ١٣٨٨ رقم ٢٥٦٥ بهذا اللفظ، غير أنه قال فى رواية ثانية : « إلا المتهاجرين »، وفى رواية ثالثة : « إلا المتهجرين »، وبلفظ : « تُعرض الأعمال فى كل يوم خميس، واثنين، فيغفر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى ذلك اليوم لكل امرئٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال : اركوا هذين حتى يصطلحا، اركوا هذين حتى يصطلحا »، وبلفظ : « تُعرض الأعمال فى كل جمعة مرتين : يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبدٍ مؤمن، إلا عبدًا بينه وبين أخيه شحناء، فيقال : اتركوا أو اركوا هذين حتى يفيئا » .

وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب : فيمن يهجر أخاه المسلم ٥/٢١٦ رقم ٤٩١٦ بلفظ : « تفتح أبواب الجنة كل يوم اثنين وخميس فيغفر فى ذلك اليومين لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئًا، إلا مَن بينه وبين أخيه شحناء، فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا » .

والترمذى فى: السنن: كتاب البر والصلة: باب: ما جاء فى المتهاجرين ٤/٣٢٧ رقم ٢٠٢٣ بلفظ : « تُفتَّح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيُغفر فيهما لمن لا يُشرك بالله شيئًا إلا المهتجرين، يقال : رُدُّوا هذين حتى يصطلحا » .

وعقَّب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح، ويُروى فى بعض الحديث [ذروا هذين حتى يصطلحا]، قال: « ومعنى قوله المهتجرين: يعنى: المتصارمين، وهذا مثل ما رُوى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » .

وكتاب الصوم : باب: ما جاء فى صوم يوم الاثنين والخميس ٣/ ١٢٢ رقم ٧٤٧ بلفظ : « تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحبُّ أن يُعرض عملى وأنا صائم »، وعقَّب عليه بقوله : « حديث أبى هريرة فى هذا الباب: حديث حسن غريب » . كلهم من حديث أبى هريرة .

وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب الأدب وغيره : باب: الترهيب من التهاجر، والتشاحن، والتدابر ٣/ ٤٥٨، ٤٥٩ رقم ١٧ من جابر ﷺ مرفوعًا : « تُعرض الأعمال يوم الاثنين، والخميس فمن مستغفر فيُغفر له، ومن تائب فيُتاب عليه، ويرد أهل الضغائن بضغائنهم حتى يتوبوا »، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الأوسط، ورواته ثقات » .

وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب : ما جاء فى الشحناء ٨/ ٦٦ من حديث جابر مرفوعًا بلفظه، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات » .

وأورده الهيثمى ٨/ ٦٦ من حديث أبى هريرة قال : قال رسول اللهﷺ : « تُنسخ دواوين أهل الأرض، فى دواوين أهل السماء فى كل اثنين وخميس، فيُغفر لكل مسلم لا يشرك بالله شيئًا إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء »، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات » .

المعنى الإجمالى للحديث :

رسالة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا هى العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثلة فى عمارة الأرض، ودعوة القاعدين إلى المشاركة فى هذه العمارة، وحمايتها من أن يعبث بها العابثون، وأن يتطاول عليها المتطاولون، ولا شك أنها رسالة ضخمة تستوفى عمر الإنسان كله، وما ينجزها على النحو اللائق المطلوب، سيَّما وأمامه عقبات ومعوِّقات من النفس الأمَّارة بالسوء، والدنيا بزخارفها وزينتها، أو بشدائدها وامتحاناتها، وكذلك شيطان الجن القاعد للإنسان بكل طريق، وأيضًا أعوانه من شياطين الإنس الذين يصعب التعامل معهم لما لديهم من إمكانات ضخمة، وموارد هائلة، هذه رسالة الإنسان وما يصحبها من عقبات .

ولكن الله رحمة منه وفضلاً أعان الإنسان لأداء هذه الرسالة، وما يكتنفها من عقبات ومعوقات بعدة إعانات، ومن بينها الأخوَّة الإسلامية، إذ هى تعين المرء على تقييم شخصيته، وبالتالى تقويمها، وكذلك هى تكسب المرء خبرات وتجارب، وتفتح له

أبوابًا شتى لتحصيل الأجر والثواب، وتعينه على تحقيق المطلوب منه بأقل التكاليف، ومن أقصر طريق، كما أنها تحفظ له هيبته، وحرماته، وتملأ عليه الفراغ، فلا تبقى لحظات يمكن أن تستغل من قبل شياطين الإنس، والجن، وأخيرًا تكون سببًا فى منح الله نصره التام للمؤمنين .

ولا شك أن تقوية أواصر الأخوَّة الإسلامية تحتاج إلى أساليب شتى ، ووسائل كثيرة، لعل من أبرزها الترغيب والترهيب، والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن الدعوة إلى تقوية أواصر الأخوَّة الإسلامية عن طريق الترغيب والترهيب ، إذ يبين النبى ﷺ فيه أن أعمال العباد تُعرض على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من كل اثنين وخميس من كل جمعة، فينظر فيها، فإن كانت من كافر أمهله، وإن كانت من مؤمن لا يُشرك بالله شيئًا، وليس بينه وبين أخيه حقد، أو بغضاء بصورة تنتهى إلى العداوة والقطيعة فإنه ـ سبحانه ـ يغفر له .

أما إذا شاب الإيمان شرك فإن هذا الشرك يحول دون مغفرة الله له، بل يحبط عمله، وكذلك من بينهما شحناء يقول : اتركوا هذين حتى يصطلحا، مُكررًا ذلك ثلاث مرات، تأكيدًا أنه لا مغفرة لكل من هذين إلا بالتطهر من هذه الشحناء بكل ما يمكن من أساليب ووسائل، شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف .

ولكى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : بيان معنى فتح أبواب الجنة فى كل اثنين وخميس من كل جمعة :

ذهب القاضى عياض، والإمام القرطبى : إلى أن فتح أبواب الجنة فى هذين اليومين على حقيقته، ولا داعى للتأويل، وهذا الفتح يقتضى كثرة المغفرة، ومنح الثواب الجزيل، ورفع الدرجات، وعلو المنازل، أو هو التأهل والانتظار من الخزنة لمن يموت فى هذين اليومين، ممن غُفرت ذنوبه، وكثرت حسناته، وعلت درجته ومنزلته، أو يكون علامة للملائكة أن الله غفر فى هذين اليومين للموحِّدين، وسائر العاملين لاسيَّما المتحابين فى الله ـ عزَّ وجلَّ .

يقول القاضى عياض : « ويحتمل أن يكون على ظاهره ، وأن فتحها علامة لذلك » [1] ، أى: كثرة الصفح، والغفران، ورفع المنازل، وإعطاء الثواب الجزيل .

---

(١) انظر : إكمال المعلم ٨/ ٣٣، ٣٤ .

ويقول الإمام القرطبى: «وفتح أبواب الجنة فى هذين اليومين محمول على ظاهره، ولا ضرورة تحوج إلى تأويله، ويكون فتحها تأهلاً، وانتظاراً من الخزنة لروح مَن يمت فى ذينك اليومين ممَّن غُفِرت ذنوبه، أو يكون فتحها علامة للملائكة على أن الله ـ تعالى ـ غفر فى ذينك اليومين للموحِّدين، والله ـ تعالى ـ أعلم »(١) .

وذهب الإمام الباجى : إلى أن فتح أبواب الجنة فى هذين اليومين من كل جمعة إنما هو كناية عن كثرة المغفرة، والثواب الجزيل، والمكانة العالية الرفيعة، يقول ﷺ : «معنى فتحها : كثرة الصفح، والغفران، ورفع المنازل، وإعطاء الثواب الجزيل »(٢) .

الجانب الثانى : معنى عرض الأعمال فى كل اثنين وخميس من كل جمعة :

ذكر الإمام القرطبى عدة معانٍ لعرض الأعمال فى هذين اليومين من كل جمعة هى:

١ ـ نقل الأعمال من صحف الكرام الكاتبين إلى اللوح المحفوظ ، ولعل ما يقوِّى هذا المعنى حديث أبى هريرة المذكور آنفًا فى تخريج الحديث ، ولفظه : « تنسخ دواوين أهل الأرض فى دواوين أهل السماء كل اثنين وخميس، فيُغفر لكل مسلم لا يشرك بالله شيئًا إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء »(٣) .

٢ ـ مباهاة الله الملائكة بأعمال بنى آدم الصالحة التى تقع منهم طوال الجمعة فى هذين اليومين المباركين، كما يباهى بالحجيج فى يوم عرفة، وكما يباهى بالمجتمعين فى بيوت الله لتلاوة كتابه سبحانه وتدارسه .

٣ ـ إعلام الملائكة المقبول من المردود من أعمال بنى آدم لتقوم بعرضها على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيغفر لمن يشاء، ويؤخر من يشاء .

يقول القرطبى ـ رحمه الله : « وعرض الأعمال المذكورة إنما هو ـ والله تعالى أعلم ـ لتنقل من صحف الكرام الكاتبين إلى محل آخر ، ولعله اللوح المحفوظ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ [الجاثية]، قال الحسن : إن الخزنة تستنسخ الحفظة من صحائف الأعمال .

وقد يكون هذا العرض فى هذين اليومين للأعمال الصالحة مباهاة بصالح أعمال بنى آدم على الملائكة، كما يباهى الله الملائكة بأهل عرفة .

---

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم ٦/ ٥٤٠ .

(٢) انظر : إكمال المعلم ٨/ ٣٣، ٣٤ .
(٣) الحديث سبق تخريجه .

وقد يكون هذا العرض لتعلم الملائكة المقبول من الأعمال من المردود، فتعرضها على الله، فيقول الله تعالى: ضعوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة : وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا خيرًا، فيقول الله ـ تعالى : « إن هذا كان لغيرى، ولا أقبل من العمل إلا ما ابتُغى به وجهى » (١) .

الجانب الثالث : المراد بالذنوب التى تغفر فى كل اثنين وخميس من كل جمعة :

المراد بالذنوب التى يغفرها الله فى هذين اليومين من كل جمعة هى الصغائر، أما الكبائر فلا تُكفر إلا بالإقلاع، والاجتناب، لقوله سبحانه : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** (٣١) ﴾ [النساء] .

ولقوله ﷺ : « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر » (٢) .

وهذا رأى القرطبى (٣) .

ورأى أيضًا أن رحمة الله تسع كل شىء، وأن فضله يعم الأحياء والأموات، كأنه يشير إلى جواز مغفرته سبحانه الكبائر (٤) .

ويمكن الجمع بين الرأيين، أن الله سبحانه إذا غفر الصغائر، فإن هذه المغفرة قد تكون سببًا فى انشراح الصدر، وطمأنينة القلب بحيث يُقبِل العبد طواعية على ترك الكبائر، واجتنابها، وتكون هذه أمارة القبول، والتوفيق من الله سبحانه وتعالى .

الجانب الرابع : ماهية الشحناء، وأسبابها، وآثارها :

تطلق الشحناء على عدة معانٍ ، منها :

١ ـ الحقد أو الضغينة، وقد جاء مفسَّرًا فى حديث جابر مرفوعًا بلفظ: « . . . ويرد أهل الضغائن بضغائنهم حتى يتوبوا » (٥) .

وكما جاء فى حديث مكحول عن أبى ثعلبة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « يطلع الله

---

(١) انظر : المفهم ٦/ ٥٤٠، ٥٤١ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس، ص ١٤٤، رقم ٢٣٣ من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

(٣، ٤) انظر : المفهم ٦/ ٥٤٠ .

(٥) الحديث سبق تخريجه .

إلى عباده ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين، ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه » [(١)] .

٢ ـ العداوة والبغضاء [(٢)] .

٣ ـ امتلاء القلب [(٣)] .

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ الشحناء هي امتلاء القلب بالحقد والضغينة بصورة تؤدي إلى العداوة والبغضاء، بل الفرقة والقطيعة .

وهذا هو المراد في الحديث كما دلت عليه رواية الترمذي: « إلا المتهجرين » يعني: المتصارمين .

والأسباب المؤدية إلى الشحناء كثيرة .. نذكر منها :

١ ـ التفاخر بالأصل : إذ يدَّعي كل من المتشاحنين أنه من أصل أرفع من غيره، وأكرم، على نحو ما ادعاه إبليس لنفسه بالنسبة لآدم عليه السلام ، إذ لما أمره الله بالسجود لآدم عليه السلام ، وأبى، سأله رب العزة ـ وهو أعلم : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)** ﴾ [ص]، فأجاب إبليس : ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)** ﴾ [ص] .

وعلى نحو ما ادعاه اليهود والنصارى ، إذ قالوا : ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾

[المائدة : ١٨]

وقد حملهم هذا الادعاء أن يستبيحوا حرمة مَن عداهم في : عقيدة، ودم، وعقل، وعرض، ومال، قائلين : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

وكذلك ادَّعت طبقة النبلاء في أوروبا الشرقية، والغربية، ونظر الجنس الأبيض إلى الجنس الأسود نظرة اشمئزاز، واحتقار، وكانت التفرقة العنصرية التي اصطلى العالم بنارها في قرون خلت لا سيَّما القرن الماضي، وما زال العالم يصطلي بنارها،وكان ذلك

---

(١) الحديث أورده المنذري في : الترغيب والترهيب ٣/ ٤٦١، وعقب عليه بقوله : « رواه البيهقي ، وهو مرسل جيِّد » .

(٢، ٣) انظر : إكمال المعلم للقاضي عياض ٨/ ٣٤، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ٦/ ٥٣٩.

شائعًا فى العرب قبل الإسلام، حيث كانوا يجتمعون فى عكاظ: ومجنَّة، وذى المجاز، لا سيَّما بعد الانتهاء من الحج ويتبارون فى التفاخر بالأحساب والأنساب، فيقول هذا عن نفسه : إنه تيمى، والثانى : إنه قيسى، والثالث : إنه قرشى، وهكذا دواليك، وقد انتهى بهم ذلك إلى الأحقاد، والخصومات، والقطيعة، وذلك هو التشاجن .

٢ ـ التفاخر بالنعمة، مع نسيان المنعم : ذلك أن نعم الله على العبد لا تُعدُّ، ولا تُحصى، وهى مع ذلك متفاوتة من عبد لآخر، حسب تقدير العليم الحكيم،وقد يحدث أن يقف المرء عند نعمة أو أكثر أعطيها، وحُرِمَ منها الآخرون، ويتفاخر عليهم بها ناسيًا أو مُتناسيًا المنعم سبحانه وتعالى، وحينئذ تكون الأحقاد، وربما الخصومات والقطيعة، على نحو ما ادَّعى جبار مصر فرعون، الذى قال للناس: أنا ربكم الأعلى، وهو يردُّ على موسى لما طلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل، وأن يخضع لله رب العالمين، إذ جاء فى ردِّه : ﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ** ﴾ [الزخرف].

وعلى نحو ما قال قارون لما نصحه قومه ألا يفرح، إن الله لا يحب الفرحين، وأن يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، إذ قال : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص : ٧٨] .

وعلى نحو ما قال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)** ﴾ [الكهف] .

٣ ـ حب الدنيا والتنافس عليها : إذ إن حب الدنيا والتنافس عليها يؤدى إلى الأحقاد، والكراهية، والخصومات، والقطيعة .

وهذا ما خشيه النبى ﷺ على أمته ، إذ قال : « فأبشروا ، وأمِّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطتْ على مَن قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم » [(١)] .

وإذ قال : « إذا فُتحت عليكم فارس، والروم، أى أقوم أنتم ؟ » قال عبد الرحمن

---

(١) هذا جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجزية والموادعة : باب: منه ٤/١١٧، ١١٨، وكتاب المغازى : باب: منه ٥/١٠٨، وكتاب الرقاق : باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/١١٢، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب: منه ٤/٢٢٧٣ رقم ٦/٢٩٦١ كلهم من حديث عمرو بن عوف الأنصارى مرفوعًا به، وبنحوه .

ابن عوف : نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون فى مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض » [١] .

٤ ـ إهدار العلاقات الاجتماعية من : إلقاء السلام، أو ردّه، وبذل النصيحة، والسؤال عن الغائب، والتهنئة بالنعمة، والمواساة فى الشدة، وعيادة المرضى، وعدم الخطبة على الخطبة، والبيع على البيع، والحقد، والحسد، ونحو ذلك، فإن إهدار هذه العلاقات يوغر الصدور، وقد يؤدى إلى العداوة والقطيعة، والفرقة .

حسبنا قوله ﷺ عن آثار الحسد، وهو مما نهى عنه الشرع الحنيف، بحيث يُعدُّ فاعله مهدرًا العلاقات الاجتماعية : « لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا » [٢] .

وقوله ﷺ : عن المراء ، والكذب ، والمزاح ، والوقوع فيها إهدار للعلاقات الاجتماعية : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان مُحقا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا . . . » [٣] .

وقوله أيضًا : « ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ﴾ [الزخرف] [٤] .

وقوله كذلك : « . . . واتقوا الشُّح، فإن الشُّح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم » .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ، باب : منه ٤/ ٢٢٧٤، ٢٢٧٥ رقم ٧/ ٢٩٦٥ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٨/ ٣٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب : تحريم التحاسد ٤/ ١٩٨٣ رقم ٢٣/ ٢٥٥٩ كلاهما من حديث أنس بن مالك مرفوعًا .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب: فى حسن الخلق ٥/ ١٥٠، ١٥١ رقم ٤٨٠٠ من حديث أبى أمامة مرفوعًا، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٤٧ ـ ١٥١ رقم ٢٧٣، وعزاه إلى أبى داود وساق له شاهدًا يرتقى به إلى درجة الحسن ـ كما قال .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب: تحريم الظلم ٤/ ١٩٦ رقم ٥٦/ ٢٥٨٧ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا بهذا اللفظ، وأحمد فى : المسند ٢/ ٤٣١ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بنحوه .

وفى رواية : « إياكم والشح، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا » (١) .

٥ ـ تصديق الوشاة فيما ينقلون عن الآخرين دون تمحيص وتثبت ، إذ هدف الوشاة تقطيع أواصر محبة المتآلفين، وتمزيق وحدة صف المترابطين ، ووسيلتهم نقل الكلام على غير وجهه مع التزيين والتحسين، ولا ينبغى تصديق هؤلاء قبل التمحيص، والتثبت، وإلا تحقق لهم ما يريدون .

قال تعالى ناهيًا عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين ، لما هو معروف عن هذه البطانة من إيقاع الفرقة بين المؤمنين : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾

[آل عمران : ١١٨]

ودعا إلى التثبت والتمحيص فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾** ﴾ [النساء] ، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾** ﴾ [الحجرات] .

وقال ﷺ : « التأنى من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير إلى الله، وما شىء أحب إلى الله من الحمد » (٢) .

وعن على رضي الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، فقلتُ يا رسول الله : ترسلنى، وأنا حديث السِّن، ولا علمَ لى بالقضاء ؟

فقال : « إن الله سيهدى قلبك، ويثبِّتُ لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الزكاة : باب: فى الشح ٣/ ٣٢٤ رقم ١٦٩٨، وأحمد فى: المسند ٢/ ١٦٠، ١٩١، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا ، واللفظ لأبى داود .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب : ما جاء فى التأنى والعجلة ٤/ ٣٢٢ رقم ٢٠١٢ من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدى، عن أبيه عن جده، قال : قال رسول الله ﷺ : « الأناة من الله، والعجلة من الشيطان »، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث غريب، وقد ضعَّف بعض أهل الحديث : عبد المهيمن بن عباس بن سهل، وضعَّفه من قبل حفظه، والأشج بن عبد القيس اسمه : المنذر بن عائذ » .

فلا تقضيَّن حتى تسمع من الآخر كما سمعتَ من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء »، قال : فما زلتُ قاضيًا، أو ما شككتُ فى قضاء بعد [(١)] .

ولعل حادثة الإفك التى تولى كبرها عبد الله بن أبى ابن سلول، وصدَّقها نفرٌ من المسلمين كمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وزينب بنت جحش وغيرهم، وكادت تأتى على وحدة المجتمع، لولا أن الله أنزل فى براءة عائشة قرآنًا يُتلى إلى آخر الزمان، لعل هذه الحادثة هى خير ما يشرح هذا السبب .

٦ ـ التعصب للمذهب، والإمام، والبلد، والقبيلة، ونحو ذلك، إذ هذا التعصب يقتضى الإعلاء من قدر ما يُتعصب له، والحط من قدر غيره، وذلك يثير الشحناء، ويزرع الأحقاد، يقول النبى ﷺ: « ومَن قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقُتِل فقتله جاهلية » [(٢)] .

٧ ـ التفاوت فى امتلاك الثروة، ذلك أن هذا التفاوت يزرع الأحقاد فى نفوس الفقراء على الأغنياء، سيَّما إذا شح الأغنياء فامتنعوا من أداء حق الله فى أموالهم، فضلاً عن مواساة هؤلاء الفقراء ساعة الشدة، ولعل هذا هو المفهوم من قوله سبحانه : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر : ٧] .

٨ ـ الكبت والقهر ، ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما يجيش بصدره، وعما يجول بخاطره، وأضيف إلى ذلك القهر فى أى صورة من صوره، سبّا، أو تجريحًا، أو سخرية واستهزاءً، أو اعتقالاً، أو تحديد إقامة، أو سجنًا وتجويعًا، أو ضربًا وتخويفًا، ونحو ذلك، وطال أمد هذا، فإن المرء يظل يختزن فى داخله، ويحقد على من كان سبب ذلك فتكون الخصومات، ومن ثم تكون الفرقة، والقطيعة .

ولعل هذا هو السر فى دعوة الإسلام إلى الشورى، وتحريم جلد الظهور، وسلب الناس أموالهم، والسخرية، والاستهزاء بهم، إذ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن: كتاب القضاء: باب: كيف القضاء، ص ٥١٤، ٥١٥ رقم ٥٣٨٢، وأحمد فى : المسند ١/٨٨، ١٣٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٦، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الأحكام: باب: ذكر القضاء، ص ٣٣٠، رقم ٢٣١٠ كلهم من حديث على بن أبى طالب ﷺ مرفوعًا .

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفى كل حال، ص ٨٣٠، ٨٣١ رقم ٤٧٨٦/٥٣ (١٨٤٨) ورقم ٤٧٨٨/٥٤، وأحمد فى : المسند ٢/٢٩٦ كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

﴿ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « رجلان من أمتى لا تنالهما شفاعتى : سلطان ظلوم غشوم، وآخر غالٍ فى الدين، مارق منه » (١) .

وفى رواية : « صنفان من أمتى لا تنالهما شفاعتى : سلطان ظلوم غشوم، وغالٍ فى الدين، يشهد عليهم، ويتبرأ منهم » (٢) .

وقال ﷺ : « إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا » (٣) .

الآثار المترتبة على الشحناء :

أما على الفرد، فنذكر منها :

١ ـ القلق النفسى والاضطراب القلبى، إذ يأبى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يمنح القلب المشحون بالضغينة الأمن النفسى، والطمأنينة القلبية، كما يُفهم من قوله سبحانه : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] .

وما من شك فى أن القَلِق والمضطرب لا يتمكن من أداء واجبه على النحو اللائق المنشود .

٢ ـ محاولات الانتقام كأثر من آثار الضغينة والكراهية، وقد يكون الانتقام سفك دم، أو سلب مال، أو نحو ذلك، وذلك فيه من الخسارة ما فيه، وحسبنا ما كانت عليه البشرية قبل الإسلام، من حروب وثارات بسبب ما كانت تنطوى عليه القلوب من ضغائن، وأحقاد، وجاء الإسلام فعمل على تطهير القلوب، وتزكية النفوس من كل ما علق بها من شوائب، وأدران، وبالتالى القضاء على الحروب، والثارات، واليوم يريد الذين يتبعون الشهوات أن تملأ القلوب بالضغائن، والأحقاد، ويشيع بين أصحابها الانتقام والثارات .

(١، ٢) الحديث بروايته أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب: فى أئمة الظلم والجور، وأئمة الضلالة ٥/ ٢٣٥، ٢٣٦ من حديث معقل بن يسار مرفوعًا، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى بإسنادين فى أحدهما (منيع) قال ابن عدى: له أفراد، وأرجو أنه لا بأس به، وبقية رجاله الأول ثقات».

(٣) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب: فى العدل والجور ٥/ ١٩٧، من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات » .

٣ ـ الحرمات من مغفرة الذنوب على النحو الذى جاء فى الحديث : « انظروا هذين حتى يصطلحا »، وما من شك فى أن عدم مغفرة الذنوب قد يصيب المرء بحال من اليأس، والقنوط يكونُ معها القعود عن أداء الواجب ولعل هذا المفهوم من قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] .

إلى غير ذلك من الآثار .

وأما الآثار على المجتمع، فتتمثل فى :

الفرقة، والقطيعة بين أبناء المجتمع، الأمر الذى يمكِّن منهم الأعداء ولا شك أن تمكن الأعداء من أبناء المجتمع يحمل معه تغيير المفاهيم والتصورات، وبالتالى تغيير الثقافات والسلوكيات بحيث ينسى نفر من المسلمين رسالته فى الأرض، ويعمل لغيرها فيكون العذاب فى الدنيا والآخرة، والعياذ بالله .

وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران] .

الجانب الخامس : المراد بإنظار المتشاحنين حتى تصالحهما، والطريق إلى هذا التصالح :

المراد بالإنظار : التأخير، ومثله قوله ﷺ : « اركُوا » قال ابن الأعرابى : « يقال ركاه يركوه : إذا أخَّره » [١] ، ويظل تأخيره مغفرة الذنوب، وبالتالى قبول الأعمال الصالحة من كل من المتشاحنين حتى يتم الصلح بينهما .

وطريق هذا الصلح تتمثل فى :

١ ـ حرص كل من المتشاحنين أن يسعى إلى استرضاء أخيه حتى لو كان محقًا طمعًا فى الظفر بالأجر الموعود به على لسان نبيه ﷺ ، إذ يقول ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيُعرض هذا، ويُعْرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » [٢] .

---

(١) انظر : إكمال المعلم للقاضى عياض ٨/ ٣٣، وعنه نقل الحافظ القرطبى فى المفهم ٦/ ٥٤٠ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة: باب: تحريم الهجر فوق ثلاثة أيام بلا عذر =

وعن أبى الحسن المدائنى، قال: « جرى بين الحسن بن على، وأخيه الحسين كلام حتى تهاجرا، فلما أتى على الحسن ثلاثة أيام من هجر أخيه، فأقبل إلى الحسين، وهو جالس، فأكب على رأسه، فقبَّله، فلما جلس الحسن، قال له الحسين : إن الذى منعنى من ابتدائك، والقيام إليك : أنك أحقُّ بالفضل منِّى ، فكرهتُ أن أنازعك ما أنت أحق به »[(١)] .

٢ ـ سعى المسلمين إلى الإصلاح بين المتشاحنين مع تحرِّى الصدق والإخلاص، واحتساب ما يلحق بالمصلحين من إيذاء عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ولقولهﷺ : « كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة »[(٢)] .

يقول الإمام النووى ـ رحمه الله : « ومعنى : تعدل بينهما ، تصلح بينهما بالعدل »[(٣)] .

جاء عن عوف بن مالك بن الطفيل ـ هو ابن الحارث ـ وهو ابن أخى عائشة زوج النبىﷺ لأمها : أن عائشة حدثت أن عبد الله بن الزبير، قال فى بيع، أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهينَّ عائشة، أو لأحجرنَّ عليها، فقالت: أهو قال هذا ؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله علىَّ نذر، ألا أكلم ابن الزبير أبدًا، استشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة فقالت : والله لا أشفع فيه أبدًا ، ولا أتحنث إلى نذرى، فلما طال ذلك على ابن الزبير، كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن عبد يغوث ـ وهما من بنى زهرة ـ وقال لهما : أنشدكما بالله لما أدخلتمانى على عائشة ، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتى، فأقبل به المسور، وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما، حتى استأذنا على عائشة،

= شرعى، ص ١١٢٢، ١١٢٣ رقم ٦٥٣٢، وأبو داود فى: السنن : كتاب الأدب: باب: فى هجرة الرجل أخاه، ص ٦٩٢، ٦٩٣ رقم ٤٩١١، والترمذى فى : السنن: كتاب البر والصلة : باب: ما جاء فى كراهية الهجرة للمسلم، ص ٤٥٠ رقم ١٩٣٢، ومالك فى: الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب: ما جاء فى المهاجرة، ص ٩٠٦، ٩٠٧ رقم ١٣، والبخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب: باب: الهجرة، وقوله النبىﷺ : « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث »، كلهم من حديث أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه .

(١) انظر : مساوئ الأخلاق للخرائطى ، ص ٢٠٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلح : باب: فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم، رقم ٢٧٠٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ٢٣٣٥، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

(٣) انظر : رياض الصالحين، ص ٨٧، ط . دار السلام ـ القاهرة ـ الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

فقالا : السلام عليك، ورحمة الله وبركاته، أندخل ؟ قالت: عائشة: ادخلوا، قالوا: كلنا ؟ قالت : نعم ، ادخلوا كلكم ، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير ، فلما دخلوا : دخل ابن الزبير الحجاب ، فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ، ويبكى ، وطفق المسور، وعبد الرحمن يناشدانها إلا كلمته ، وقبلت منه ، ويقولان : إن النبىﷺ نهى عمَّا قد علمت من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة، والتحريج طفقت تذكرهما، وهى تبكى ، وتقول : إنى نذرتُ، والنذرُ شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقتْ فى نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك، فتبكى حتى تبلَّ دموعها خمارها » (١) .

٣ ـ التذكير بالعواقب الفردية، والجماعة المترتبة على استمرار الشحناء، إذ الوقوف على هذه العواقب، واليقين يحمل على السعى للتخلص من هذه الشحناء على هذه العواقب، والوسائل الممكنة، والتى لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف .

٤ ـ تقوية مَلَكَة تقوى الله لدى كل من المتشاحنين، فإن هذه المَلَكَة إذا قَوِيَت ساعدت هذين على تطهير القلوب، وخفض كل واحد الجناح لصاحبه، وقبول كل ما يشير به المصلحون، ولم لا يكون ذلك، والنبىﷺ يقول : « الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف » (٢) .

٥ ـ التذكير بالأسباب: المؤدية إلى التشاحن، ومحاولة التخلص منها سببًا سببًا فى ضوء الكتاب والسنة، وتجارب المربين من المسلمين، وكذلك تجارب الأمم الأخرى، على ألا يتعارض ذلك مع مبادئ ديننا الحنيف .

وحين يكون المرء صادقًا فى توجيهه ، قاصدًا وجه الله بعمله ، سيجد من ربه كل معية ، وكل تأييد وعون ، على حد قول سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ **إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)** ﴾ [الشعراء] .

ما يُستفاد من الحديث دعويا وتربويًا :

يستفاد من الحديث دعويا وتربويا عدة فوائد، نذكر منها :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح كتاب الأدب : باب: الهجرة، وقول الرسولﷺ : « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث » ٨/ ٢٥، من حديث عوف بن مالك بن الطفيل، عن عبد الله بن الزبير بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر، والصلة، والآداب : باب: الأرواح جنود مجندة، ص ١١٤٩ رقم ٦٧٠٨، ٦٧٠٩ (٢٦٣٨)/ ١٥٩، ١٦٠، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب: مَن يؤمر أن يجالس، ص ٦٨٣ رقم ٤٨٣٤، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

١ ـ خطورة الشرك بالله، حيث يكون سببًا فى عدم المغفرة، بل والحرمان من قبول العمل، وإن كان زنة الجبال، وعدد حبات الرمال .

٢ ـ خطورة الشحناء، حيث تحول دون مغفرة الذنوب، بل وتؤدى إلى عدم قبول الصالحات، كما تؤدى إلى الفرقة والقطيعة، الأمر الذى قد يمكِّن الأعداء من الأمة، وينتهى بها إلى عذاب الدنيا والآخرة على النحو الذى مضى آنفًا .

٣ ـ ضرورة السعى وبسرعة لإزالة الشحناء بين المسلمين بكل الأساليب والوسائل الممكنة شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الدين الحنيف .

٤ ـ فضيلة يومى الاثنين والخميس لفتح أبواب الجنة فيهما، فيلجها كل مسلم يتفضل الله عليه بمغفرته ذنوبه، وقبول صالح عمله، وعليه فيجمل بكل مسلم انتهاز فضيلة هذين اليومين تارةً بالصيام، وتارة بالفقه فى الدين، وتارة بالسعى فى حوائج الناس، ونحو ذلك، كما كان يفعل النبى ﷺ ، إذ مضى فى الحديث قوله ﷺ : «تُعرض الأعمال يومى الاثنين والخميس، فأحب أن يُعرض عملى وأنا صائم »، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يُحدِّث أصحابه كل خميس من كل أسبوع لئلا يسأموا أو يملُّوا .